الفصل الرابع

أسباب التقوى

obeikandl.com

obeikandl.com

بعد أن تبينت لنا أهمية التقوى، ورأينا الأمر بها بكل الأساليب التي تحض عليها، وتحمل المرء على التزامها، وأنها دعوة الرسل، والتي سلكوا كل السبل لدعوة الناس إليها، جاء هذا الفصل ليوضح لنا الطريق إلى تحقيق هذه التقوى. وها هى ذى هذه الأسباب.

المطلب الأول : الإيمان.
المطلب الثانى : العبادة.
المطلب الثالث : الأخلاق والسلوك.
المطلب الرابع : التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة.
المطلب الخامس : صفات المتقين.

obeikandl.com

obeikandl.com

المطلب الأول
الإيمان

لاشك أن الإيمان بالله هو أول أسباب تقوى الله تعالى، خاصة وأن دعوة الرسل كانت للإيمان بالله – سبحانه، وقد رأينا أن عمادها الأول الدعوة إلى تقوى الله تعالى، وبها تبين أن الدعوة إلى التقوى هى الدعوة إلى الإيمان، وعليه فلا تقوى إلا بترك الشرك وعبادة غير الله تعالى، وهى أولى مراتب التقوى.

هذا هو الأمر الأول. والأمر الثانى أن الآيات قد دعت المؤمنين بعد ذلك إلى تقوى الله، مما يبين أن الإيمان المقصود لتحقيق التقوى إنما هو درجة فوق ترك الشرك، وهو المقصود الأصلى هنا، وهو الإيمان الذي يباشر القلب، ويخالط شغافه، فيفيض على الجوارح الطاعة والالتزام، والمسارعة إلى الخير. هذا الإيمان الذي يزرع في القلب محبة الله تعالى، والخوف منه، والرجاء فيه، والطمأنينة بذكره، والأنس به، والشوق إلى لقائه. الإيمان الذي يملأ القلب بالتوكل والرضا، والثقة فيما عند الله، والصبر واليقين في الله تعالى، فيعصم الجوارح عن المخالفات والمعاصى، ويحملها على طاعة الله تعالى والإنابة إليه، والزهد في الدنيا، والاستعداد للآخرة. وقد دل على مثل ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال: ٢-٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

وفى حصر أسباب التقوى، أى الآيات التي تبين تلك الأسباب، وجدتها محصورة في صفات المتقين الذين ذكر الله تعالى في كتابه الكريم، فكان لزاماً رصد ذلك، وتفصيل القول فيه. وكان نصيبه المطلب الأخير في هذا الفصل، وكانت

هذه المطالب كالمقدمة له.

وكما نوهنا أكثر من مرة فإن الإيمان هو الدرجة الأولى في التقوى، إذ لا يتقى المشرك النار إلا بالإيمان، ثم يرتقى بعد ذلك في درجات التقوى، ودرجة الدين العليا هى الإحسان، كما صرح ﷺ في حديث جبريل لما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، ولما كان الإيمان والإحسان مرتبطين بالتقوى، كان لابد من توضيح ذلك.

ونبدأ بتعريف الإيمان والإحسان لغةً وشرعاً واصطلاحاً.

والإيمان لغةً: التصديق[1]، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧]. وأما شرعاً: فهو تصديق النبى ﷺ فيما جاء به عن ربه، وقد عرفه النبى ﷺ كذلك بقوله: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره». وأما اصطلاحاً: فقد اصطلح أهل السنة على كونه قولاً وعملاً يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

أما الإحسان في اللغة فهو على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان. والثانى: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علماً حسناً، أو عمل عملاً حسناً.[2] وأما في الشرع، فقد عرفه النبى ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وهو متوافق مع المعنى الثانى في اللغة، وهو الإحسان في الفعل، وهو أن يصل في عبادته إلى تلك الدرجة الحسنة.

وأما عن حد الإيمان عند أهل السنة وعلاقته بالإسلام والإحسان، وأن ذلك اعتقاد المتقين، فقد ذهب جمهور أهل السنة إلى أن الإيمان قول وعمل، والمقصود بالقول: النطق بالشهادتين، وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل

(1) انظر الرازى «مختار الصحاح»، مادة أ م ن. والأصبهانى «المفردات في غريب القرآن».
(2) الأصبهانى «المفردات في غريب القرآن»، مادة ح س ن.

القلب والجوارح ليدخل الاعتقاد والعبادات، وبذلك يكون الإيمان تصديقاً بالجنان ونطقاً باللسان وعملاً بالأركان، ولكن العمل شرط في كمال الإيمان، ومن ثم كان الإيمان يزيد وينقص، ويعلم المرء ذلك من يقينه وتوكله وعبادته في اختلاف الأحوال.

وعليه لا يكون المرء مسلماً حتى يقر بلسانه مع التصديق بالقلب، فمن آمن بقلبه ولم يقر بلسانه فهو كافر في أحكام الدنيا، ومن أقر لسانه ولم يعتقد بقلبه فهو منافق تجرى عليه أحكام الإسلام في الدنيا، وهو في الدرك الأسفل من النار في الآخرة، ومن اعتقد الإيمان وأقر بلسانه دخل الإسلام ظاهراً وباطناً، ثم يرتقى في أعمال الإيمان بما يظهر صحة هذا الإقرار، ولكن انتفاء الأعمال لا ينتفى بها الإيمان بالكلية، لأن الرسول ﷺ كان يقبل الإسلام ممن جاء مقراً به، ثم يتعلم الإيمان ويتدرج في مراتبه.

فارق بذلك أهل السنة فرق الضلال من المعتزلة والخوارج والمرجئة، أما المرجئة فقد قالوا الإيمان اعتقاد ونطق فقط، وإيمان من أتى بذلك كإيمان جبريل عليه السلام، وهو كما يظهر بين الخطأ، أما الخوارج والمعتزلة فقد اشترطوا العمل، فمن أقر بالشهادتين وترك العمل فهو كافر عند الخوارج مخلد في النار، وهو عند المعتزلة في منـزلة الفسق بين المنـزلتين، لا كافر هو ولا مؤمن، ولكنه مخلد في النار كاعتقاد الخوارج[1]، وهو كلام ممعن في الضلال كما يظهر.

أما عند أهل السنة فإن مرتكب الكبيرة لا ينتفى عنه اسم الإيمان بالكلية، بل هو في مشيئة الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، ومن ثم قال الرسول ﷺ : «شفاعتى

(1) انظر ابن أبى العز «شرح العقيدة الطحاوية»، (ص٣١٣-٣٢٨). وابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١/ ٤٦-٤٧).

لأهل الكبائر من أمتى».[1]

هذا الاعتقاد هو اعتقاد المتقين، بمعنى أن أهل التقوى كما ميزتهم الأعمال ميزهم الاعتقاد الحق، وإلا كانوا من أهل البدع، وهم كلاب أهل النار، لذلك كان مهماً ذكر هذا الاعتقاد، لأن من درجات التقوى تقوى البدعة، والتي شدد فيها العلماء تشديداً عظيماً، إذ هى خروج عن اعتقاد النبى ﷺ والسلف الصالح، والتي تبين أن أصحابها مهما أوتوا من علم وعمل فليسوا متقين، ولا يخفى ما قال النبى ﷺ في الخوارج مع ما كانوا عليه من الاجتهاد في العبادة، وفى القدرية وهم نفاة القدر «المعتزلة» مع كانوا عليه من العلم والعمل.

أما علاقة الإسلام والإحسان بالإيمان فتقدم تعريف الإسلام، ثم نوضح العلاقة بينهم بعد ذلك.

هذا تعريف الإسلام، وقد عرفنا الإيمان والإحسان من قبل، فحسب تعريف النبى ﷺ في حديث جبريل فإن كل مؤمن مسلم، وكل محسن مؤمن، وليس العكس، ولأن الله تعالى قال: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]. وكذلك: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، فإنه نفى عنه الإيمان الذي لا يبقى معه الإسلام، أى وهو مسلم، لأنه لو نفى أصل الإيمان لكان كافراً، وهذا ليس اعتقاد أهل السنة، إذ الزانى له حد في الشرع ولا يكفر.

فإن قيل: قد عرف النبى ﷺ الإيمان بما عرف به الإسلام، فقال لوفد بنى عبد القيس: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:

---

(1) الحديث رواه الترمذى (٥٥٩٨) من حديث أنس، وابن ماجه (٥٥٩٩) من حديث جابر. انظر الإمام محمد بن عبد الله الخطيب التبريذى «مشكاة المصابيح»، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى، ط. المكتب الإسلامى، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

«شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس»[1]، فما علاقة الإسلام بالإيمان؟

أجاب أهل العلم بأن الإسلام والإيمان من الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت، بمعنى إذا أطلق الإسلام فإنه يدخل فيه الإيمان والإحسان، كما في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، والدين كما في حديث جبريل هو الإسلام والإيمان والإحسان. وإذا اجتمعا افترقا، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فإن الإيمان غير الإيمان هنا، وتفسيرهما في حديث جبريل.

تلك هى العلاقة بين الإسلام والإيمان والإحسان. فإن قيل: ما دخل ذلك بالتقوى؟ قلنا: المتقون لهم اعتقادات نظرية وأعمال ظاهرة، هذه هى اعتقاداتهم الباطنة التي لابد من اعتقادها، لأن أى خروج عنها زيغ عن الصراط المستقيم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فبينت الآية أن اتباع هذا السبيل وعدم الزيغ عنه إلى تلك السبل الخارجة يرجى به تقوى الله تعالى، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتعلم الحق فيه.

ولا شك أن للإيمان نواقض، إذا أتاها المرء عالماً قاصداً مختاراً كفر وخرج عن الدين، ولما كان اختيار الباحث في فصل «التقوى ودعوة الرسل» أن التقوى هى الإيمان وترك الشرك، وأن الرسل عليهم السلام، دعوا أقوامهم أول ما دعوا إليها، فمعنى ذلك أن الكفر نقيض التقوى، وقد جاءت فعلاً آيات قرآنية عديدة تبين أن الكفر مقابل للتقوى، وأن الكافرين في مقابل المتقين، وها هى أمثلة لتلك المواضع دليلاً لهذا القول، وتعظيماً للتقوى وخطر شأنها:

---

(1) رواه البخارى (٥٣)، انظر ابن حجر العسقلانى «فتح الباري»، (١/ ١٢٩).

١. ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].
٢. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].
٣. ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].
٤. ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].
٥. ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وضحت هذه الآيات الكريمات أن الكفر والظلم والفجور والإجرام واللدد كل ذلك في مقابلة التقوى، وكأن ذلك دليل على ما وراءها من الصفات، وأن كل ذلك في مقابل التقوى وأن المرء لا يكون تقياً إلا بأن يتخلص من تلك الصفات. وقد بينت أيضاً أن عاقبة المتقين في مقابل عاقبة الكافرين المجرمين. كل ذلك حثاً على الإيمان والتقوى، وتحذيراً للكفار من التمادى في شركهم وظلمهم.

أما الآية الأولى فسياقها: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥].

فبعد أن مثل القرآن الكريم الجنة التي وعد المتقون، أكد بقوله تلك عقبى أى العاقبة الحسنة للذين اتقوا، وأظهر في مقام الإضمار حيث كان يمكن أن يقال تلك عقباهم، وذلك لإظهار شرف أهل التقوى، وليميزهم في مقابل الكافرين، فيظهر بذلك فضل التقوى وعاقبتها.

وأما الآية الثانية فهى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧٢]، وكذلك بينت هذه الآية عاقبة المتقين في النجاة من النار، وعاقبة الكفرة في بقائهم فيها، ووصفتهم بصفة من

أسوأ صفاتهم وهى الظلم تنبيهاً على أن الظلم كذلك في مقابلة التقوى وإن كان الظالمون هنا هم الكافرين وقد بسطنا شرح هذه الآية في موضعه.

وصفت سورة مريم الكفار قرب نهايتها بصفتين أخريين غير الظلم وكل ذلك في مقابل صفات التقوى هما الإجرام واللد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

والآية الأولى تبين شرف أهل التقوى وحسن ورودهم على الله تعالى، وأنهم يحشرون راكبين على هيئة الوفود المكرمة، والمجرمين يساقون إلى جهنم على هذه الهيئة المزرية عطاشاً.(١)

والثانية تبرز البشارة لأهل التقوى، والإنذار الشديد لمقابلهم من أهل الخصومة الشديدة والعناد، وهى كذلك صفة الكفرة الذين تأبوا أشد الإباية على الإيمان.

يقول الطاهر بن عاشور في تفسير الآية ما حاصله: وعبر عن الكفار بقوم لد ذماً لهم بأنهم أهل إيغال في المراء والمكابرة، والتصميم على الباطل وفى الحديث: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»، وقد حسن مقابلة المتقين بقوم لد، لأن التقوى امتثال وطاعة والشرك عصيان ولد.(٢)

والموضع الأخير في سورة «ص» هو قوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨].

---

(1) انظر صديق خان «فتح البيان»، (٦/ ٥٦-٥٧).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/ ١٦٧-١٧٧). و الحديث رواه البخارى (٢٤٥٧) من حديث عائشة، ومسلم (٢٦٠٧).

وهذه الآية الكريمة سيقت مساق الرد على منكرى البعث والحساب والثواب والعقاب، و«أم» منقطعة والاستفهام فيها للإنكار، والمراد لو بطل الجزاء كم يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد واتقى وفجر، ومن سوى بينهما كان سفيهاً.(١)

وهذا ما يبين خلاف التقوى من الكفر والفجور إذ الفجار من شعارهم الفجور وهو أشد المعصية، والمراد به: الكفر وأعماله التي تراقب أصحابها التقوى، كان تبيين حقيقة التقوى، وكذلك تبيين أن من أضداد التقوى الكفر والظلم ... إلى آخره ليكون دافعاً جديداً لتقواه سبحانه، وتصحيح الإيمان، والترقى في درجات الإحسان، كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [عبس: ٤٢].

(١) انظر الزمخشرى «الكشاف»، (٣/ ٣٢٦).

openkandl.com

المطلب الثانى
التقوى والعبادة

لاشك أنه بعد الإيمان بالله تعالى وتصحيحه اعتقاداً وعملاً، لابد للمؤمن من سلوك طريق العبادة ليتحقق بأسباب التقوى المفضية إليها، وليظهر بذلك حقيقة إيمانه، إذ لكل شيءٍ حقيقة وحقيقة الإيمان أن يظهر على الجوارح أعمال الطاعة وأنوار العبادة لتصدق هذا الإيمان، فكانت العبادة السبب الرئيسى بعد الإيمان للوصول إلى تقوى الله تعالى.

وقد أشرنا في نهاية المطلب الأول أن قد أخرنا صفات المتقين لنهاية الفصل لنجمع بذلك كل ما أشار إليه القرآن الكريم من أسباب التقوى، ونفصل القول فيها. ولكن لابد مع ذلك من الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١].

وبالنظر في الآية الكريمة لأول وهلة يرى المرء ما ظاهره التناقض عند تفسير الآية، إذ التقوى كما عرفناها في أول البحث إنما جانبها الأهم هو العبادة، فيكون معنى الآية الكريمة الأولى التي معنا: يا أيها الناس اعبدوا ربكم لعلكم تعبدون، أو: اتقوا ربكم لعلكم تتقون، على حد تعبير الفخر الرازى في تفسير الآية[1]، وكذلك في مفردات العبادة، كقوله تعالى في الصيام: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أو في الأمر بما هو أعم من العبادة على حد التقسيم الفقهى: العبادات والمعاملات.. الخ، كقوله تعالى: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [البقرة: ٦٣]. ومن فروع ذلك قوله - جل وعلا: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

---

(١) انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٤٩٠-٤٩١).

ونطالع كلام أهل العلم الذين أشاروا إلى توضيح ما سبق، لأن بعض المفسرين قد ترك الحديث رأساً على التقوى ولم يشر إلى معناها، ظناً مثلاً أنها واضحة المعنى، كالحافظ ابن كثير.(١)

ونبدأ بكلام الإمام الفخر الرازى، حيث هو من قد علمنا الذي أثار السؤال السابق، أعنى قوله: «اعبدوا الله لعلكم تعبدون»، وأجاب عليه، وها هو رده - رحمه الله تعالى، يقول:

«والجواب من وجهين: الأول: لا نسلم أن العبادة نفس التقوى، بل العبادة فعل يحصل به التقوى، لأن الاتقاء هو الاحتراز عن المضار، والعبادة فعل المأمور به، ونفس الفعل ليس هو نفس الاحتراز عن المضار، بل يوجب الاحتراز، فكأنه تعالى قال: اعبدوا ربكم لتحترزوا به عن عقابه، وإذا قيل في نفس الفعل إنه اتقاء فذلك مجاز لأن الاتقاء غير ما يحصل به الاتقاء، لكن لاتصال أحد الأمرين بالآخر جرى اسمه عليه. والثانى: أنه تعالى خلق المكلفين لكى يتقوا ويطيعوا على ما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكأنه تعالى أمر بعبادة الرب الذي خلقهم لهذا الغرض، وهذا التأويل لائق بأصول المعتزلة».(٢)

ونلتقط كلام الإمام الرازى في الوجه الثانى لنستكمل به توضيح المسألة، حيث إن قوله هذا التأويل لائق بأصول المعتزلة، ليس لائقاً فقط، بل هو كلام

---

(١) تفسير القرآن العظيم، الحافظ إسماعيل بن كثير، (١/)، عند تفسير قوله تعالى: (اعبدوا ربكم.. الآية). وفتح البيان، صديق خان، حيث لم يذكر كذلك معنى التقوى، (١/ ٨٥). وكذا المحرر الوجيز، ابن عطية، (١/ ١٠٥)، وغيرها.

وكأن قصد المفسرين جميعاً بتبيين معنى «لعل» التي للترجى، حيث لا تجوز في حق الله تعالى، وأهمل أكثرهم في غمار هذا البحث الكلام على التقوى والعبادة إلا من سنرى لهم ذلك.

(٢) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٤٩٠، ٤٩١).

الزمخشرى نفسه في «الكشاف»، وهو قد رد كذلك عليه في الوجه الأول بغير التصريح باسمه، إذ قد أورد الزمخشرى أن التقوى هى العبادة. وأن (لعلكم تتقون) متعلق بـ(خلقكم)، لا بقوله تعالى: (اعبدوا)، الذي عليه جمهور المفسرين. وقد كفانا الإمام أبو حيان المسألة ذكراً ورداً، فبدل الخوض فيها، نشير إلى كلامه – رحمه الله، خاصة وقد استعان بكلام الفخر الرازى في الوجه الأول في رد كلام الزمخشرى. يقول الإمام أبو حيان – رحمه الله: «ولما جعل الزمخشرى (لعلكم تتقون) متعلقا بالخلق قال: فإن قلت: فهلا قيل: تعبدون لأجل اعبدوا أو اتقوا لمكان (تتقون) ليتجاوب طرفا النظم؟[1] قلت: ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدى ذلك إلى تنافر النظم، وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده، فإذا قال: (اعبدوا ربكم الذي خلقكم) للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة وأشد إلزاماً لها وأثبت لها في النفوس. انتهى كلامه. وهو مبنى على مذهبه في أن الخلق كان لأجل التقوى، وقد تقدم ذلك.

وأما قوله: ليتجاوب طرفا النظم، فليس بشىء، لأنه لا يمكن هنا تجاوب طرفى النظم، لأنه يصير المعنى: اعبدوا ربكم لعلكم تعبدون، أو اتقوا ربكم لعلكم تتقون، وهذا بعيد في المعنى، إذ هو مثل: اضرب زيداً لعلك تضربه، أو: اقصد خالداً لعلك تقصده، ولا يخفى ما في هذا من غثاثة اللفظ وفساد المعنى، والقرآن متنـزه عن ذلك. والذي جاء به القرآن هو في غاية الفصاحة، إذ المعنى أنهم أمروا بالعبادة على رجائهم عند حصولها حصول التقوى لهم.

ثم ذكر الوجه الأول الذي ذكره الإمام الرازى في أن التقوى ليست

---

(١) كأن تجاوب طرفى النظم عند الزمخشرى هو اعبدوا لعلكم تعبدون، أو اتقوا لعلكم تتقون، ولكن لما كانت العبادة هى التقوى، فلا تنافر!

العبادة.. إلى آخره بحروفه، وإن لم ينسبها للإمام الرازى.[١]

نصل حتماً، بعد هذه المقدمة، إلى تعريف العبادة لغةً واصطلاحاً في محاولة للمقارنة بين كلام الرازى وكلام غيره ليتضح الفارق، والقول المختار لنا في هذا الاختلاف.

يقول في مختار الصحاح: «العبد ضد الحر، وأصل العبودية الخضوع والذل والتعبيد: التذليل. يقال: طريق معبد، والعبادة: الطاعة، والتعبد: التنسك».

ويضيف الراغب الأصبهانى في «المفردات»: «والعبادة أبلغ منهما - أى من العبودية - لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى».

ويقول الإمام ابن تيمية، مضيفاً على المعنى السابق: «لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب». فأضاف معنى الحب لله تعالى على أن ذلك من لوازم العبادة، لذا يقول: «ومن خضع لإنسان مع بغضه له فلا يكون عابداً، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له كما قد يحب ولده وصديقه. ولهذا لا يكفى أحدهما في عبادة الله، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شئ، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شئ، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله، فكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلاً».[٢]

فكانت العبودية إذن اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال في الظاهر والباطن والبراءة مما يخالف ذلك.

---

(١) أبو حيان محمد بن يوسف «البحر المحيط»، (١/ ١٥٦).

(2) شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيميه «العبودية في الإسلام»، سنة ٧٢٨هـ، الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ، دار الفتح، نشرها قصى محب الدين الخطيب.

وهذا ما يختاره الباحث من هذه التعريفات، وبالنظر فيما عرفنا به التقوى في أول البحث من دخول ترك الشبهات، وترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس، فإن تعريف «الزمخشرى» للعبادة بأنها التقوى لا يدخل فيه ذلك لكون العبادة كما أشرنا.

وبالنظر لتعريف «الرازي» ومن تبعه بأنها طاعة الأمر، فإن التعريف بذلك يكون قاصراً عن لزوم المحبة للطاعة لتكون عبادة، وكذلك البراءة مما ينافى ذلك، وغاية تعريف الرازى أن الطاعة اتباع الأمر أن يشمل الواجب والمستحب، والعبادة كما رأينا أعم من ذلك.

وللزوم العبادة للتقوى، وأن المرء المؤمن لابد وأن يلزم العبادة وأن يستقيم عليها، وأن يسارع إليها ويزداد منها. لتحصيل درجات التقوى العالية، كان لابد من بعض تفصيل في الكلام على العبادة، وهو ما تركناه لصفات المتقين، إذ شملت أنواع العبادات المطلوبة للتقوى.

وإن كنا لابد أن نضرب مثلاً لكون العبادة سبباً للتقوى، فقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] هو الدليل على ذلك، لأنها تدخل إلى موضوعنا مباشرة، حيث تبين أن الصيام، وهو أحد العبادات التي أمر الله سبحانه وتعالى بها، وندب إليها، بل وجعلها كفارة لكثير من المخالفات للشرع الشريف، تبين أنه سبيل لتقوى الله عز وجل، وهو دليل كذلك على أن غيره من العبادات طريق للتقوى بلا شك، حيث هناك مثلاً الصلاة وهى أهم منه، فتكون من باب الأولى سبباً لتقوى الله تعالى، وبقية العبادات سبيل إلى التقوى إذن.

ومعنى الآية الكريمة: أن الله يخاطب المؤمنين بأنه قد فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الذين من قبلهم على ألسنة رسلهم، يرجون بتنفيذهم هذه

الفريضة أن يصلوا إلى مرتبة التقوى[١]، وفى الصيام معان مهمة توصل إلى التقوى، من حيث كونه تهذيباً للنفس، وقمعاً للشهوات، وتصفية للروح والبدن بحيث تكون أقرب إلى الله سبحانه، وأسرع استجابة إلى أوامره، وبعداً عن نواهيه، مع إحساس الصائم بالفقراء والمساكين، فيكون أبر بهم، وأكثره إحساناً إليهم، كل ذلك تقوى الله الذي يؤدى إليه الصوم إلى غير ذلك من المعانى التي فيه التقوى.

وقبل أن نبين صفات المتقين هناك ملحوظة في آيات العبادة والتقوى، وهى في قوله تعالى: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [البقرة: ٦٣]، وهى أن يأخذ المؤمنون ما آتاهم من ربهم بقوة رجاء التقوى.

وتكررت كذلك في الآية الواحدة والسبعين بعد المائة من سورة الأعراف وهذه الآية الكريمة نزلت في اليهود بقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ ... ﴾ [الأعراف: ١٧١].

والمعنى أن الله تعالى أخذ عليهم العهد بطاعته والوفاء بما ألزمهم به من شريعته، ورفع فوقهم الطور آية لهم على ذلك، وتهديداً لهم إن لم يوفوا بالعهد، ثم أمرهم بأن يأخذوا ما أتاهم به موسى – عليه السلام – من عند ربهم بالقوة أى بالجد والعزيمة وترك التكاسل والتباطؤ رجاء أن ينتظموا في سلك المتقين[٢] فيفوزوا في الدنيا والآخرة، والآية الكريمة تبين أخلاق اليهود، ونبذهم العهد، واعتراضهم على شريعة الله – سبحانه، ومحادتهم لرسوله عليه السلام إيذاءهم

---

(1) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٢٣٤). وصديق خان «فتح البيان في مقاصد القرآن»، (١/ ٢٩٠).

(2) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ١٣٣). وكذلك الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٢/ ١٥١).

له، حتى هددهم هذا التهديد الشديد برفع الجبل عليهم ليعاينوا بأنفسهم ما يجعلهم يسارعون بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى، والوفاء بعهودهم، ويحملهم على أخذ كتاب الله – جل وعلا – بقوة.

والآية فيها تعريض كذلك باليهود، بأنهم لا يأخذون شرع الله بالجد والعزيمة، وهو تنبيه لأهل الإسلام ألا يكونوا كمثلهم، لأن التقوى لا تتحقق بمثل هذه الأخلاق السيئة، والصفات الرذيلة.

ويكون المعنى المسوق لأهل الإيمان أن أخذ أوامر الله تعالى، وما أتى به النبى ﷺ بالجد والعزيمة وترك الكسل هو علة التقوى، فيجب عليهم، وهم أرق قلوباً، وأوفى عهوداً أن يسارعوا إلى ما يرجى به أن ينتظموا في سلك المتقين.

openkandl.com

المطلب الثالث
الأخلاق والسلوك

وإذا كان الإيمان والعبادة سبيل بين لتحصيل التقوى، فإن مما يكمل ويرفع درجتها، السلوك الراشد والخلق القويم في ظاهر المرء، وباطنه، وكذلك في سره وعلانيته، حيث كانت الدرجة العليا من الخلق للنبى ﷺ حيث قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]، وهو أتقى العالمين لله تعالى فدل على ارتباط الخلق بالتقوى، ومن ثم قال ﷺ: «إن من أحبكم إلَيَّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً».(١)

فكان السلوك الرشيد والخلق الحميد سبيلاً إلى تقوى الله ﷻ يجب، ويندب للمؤمن أن يترقى في سلوكه، وأن يجاهد نفسه على الأخلاق الحسنة، فكلما ترقى سلوكه، وحسن خلقه ازداد تقوى لله تعالى، وقرباً من النبى ﷺ ومحبة منه. فكان هذا المطلب لجعل السلوك أيضاً والخلق من سبل تحصيل التقوى وكما ذكرنا في المطلبين السابقين نذكر في هذا المطلب بأن صفات المتقين والتي منها ما يتعلق بالسلوك والأخلاق قد حصرناها في نهاية الفصل لنستوفى الكلام عليها.

ولذلك فإن المؤمن باستعماله الأخلاق الحسنة، ورياضة نفسه عليها يتدرج في مدارج التقوى، وذلك كرياضة نفسه على الصبر والحلم، والسماحة وكظم الغيظ والعفو وغيرها من الأخلاق الحسنة، وأما السلوك الراشد: فمن تعود الصدق، فإن الرجل يصدق ويصدق، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وكذا أداء الأمانة، وصلة الرحم، وبر الوالدين، والإحسان إلى الفقراء والعطف على اليتامى والأرامل، والسعى في مصلحة المسلمين، كل ذلك السلوك وغيره مما ينزل به المرء منـزلة التقوى، وكلما ازداد تخلقاً بذلك، وسلوكاً

---

(1) الحديث رواه الترمذى (٢٠١٩) عن جابر بن عبد الله ﷺ، وقال: حديث حسن.

ارتفعت درجته، وعلت رتبته بين المتقين الأخيار.

ذكر القرآن الكريم كل هذه الأخلاق والصفات، التي وُصِف بها المتقون لتكون مناراً للدارس، والسالك لهذه ليعلمها، ويتحقق بها.

obeikandl.com

المطلب الرابع
التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة

لما ذكرنا أن التقوى ملاك الأمر، وأنها يجب أن تكون مقصد المرء في الدنيا، وأن يأخذ بالأسباب التي توصله إليها، فإنما ذلك لطلب آخر، الذي نحن فيه، وهو أن التقوى إن صح التعبير سبب لمزيد التقوى، وأنه كلما أخذ المؤمن بأسبابها هيأته لدرجة أعلى من درجاتها.

فإذا ما حصل المرء شيئاً من الأسباب الآنفة في المطالب تلك، فتحصل له بذلك درجة من التقوى، من الإيمان، والعمل الصالح أو السلوك الراشد، والخلق القويم، كان تحققه بذلك طريقاً جديداً، وسبيلاً قوياً لجنى ثمرة درجة أكرم من درجات التقوى، ورتبة أفضل من رتبها.

ومن ثَمَّ كانت التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة من المرء المؤمن؛ لأنه كما ذكرنا كلما حصل شيئاً من التقوى بعثه ذلك على مزيد من الإيمان والعمل الصالح، هداه إلى كثير من الأخلاق الحسنة والصفات الحميدة، وفى نفس الوقت إذا إزدادت أخلاقه الحسنة، وسجاياه الكريمة خفت منه الأخلاق السيئة والصفات المرذولة، وكان أفضل من ذى قبل، وأحب إلى الله تعالى، وهكذا يترقى المرء في درجات الكمال الإنسانى، في اعتقاداته، وعباداته وسلوكه وأخلاقه، وبالتالى معاملاته، وصلاحه، مع الله - جل وعلا، ومع الناس، ويكون عنصراً صالحاً حينئذ لنفسه ومجتمعه فينشأ من ذلك صلاح المجتمعات الإسلامية، والإنسانية.

ويدل لذلك ويؤيده أن المرء إذا تخلف عن التقوى، وضعفت في قلبه مادتها، ظهر ذلك على الجوارح، فضعف الإيمان، وفقدت العبادة هيبتها ولم تؤت ثمرتها، وساءت الإخلاق، وأعوج السلوك. فانتشرت بذلك كافة الرذائل والموبقات، ومجتمعات المسلمين اليوم أجل شاهد وأصدقه على تلك الحال

المتردية، والتي وصلت إليها بجدارة بسبب التفريط في تقوى الله تعالى، وذلك على جميع الأصعدة وكافة المستويات.

كان هذا المطلب كذلك دليلاً على لزوم حصر صفات المتقين، لتوضح بها ما ذكره القرآن الكريم من سبل تحقيق التقوى، فكان ذلك المطلب وهو المطلب الأخير.

obeikandl.com

المطلب الخامس
صفات المتقين

ونبدأ بهذه المقدمة، وهى كذلك قائمة على موضع من مواضع التقوى، ألا وهو قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ [الشمس: ٧-٨].

كان من رحمة الله تعالى بالإنسان أن بين له طريق الخير وطريق الشر، ولم يتركه حتى هيأ نفسه لقبول أى الطريقين، فألهم نفسه الفجور والتقوى، ومع ذلك لو تركت بغير تأثير الفجور عليها لاختارت التقوى وأرادتها؛ ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، ثم أرسل إليه الرسول ليبين له الطريق ويأخذ بيده فيه، ويقطع عنه العذر والحجة أمام الله تعالى.

كانت هذه الآية هى المدخل لأن يتصف المرء بالتقوى، ويجاهد نفسه على التخلق بصفات المتقين، يرجو بذلك الفلاح، ولذا جاء بالآية بعدها: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس: ٩-١٠].

ونستفتح من صفات المتقين بما استفتح به القرآن الكريم في أول آياته، وذلك في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾ [البقرة: ١-٥].

حيث نبدأ رحلتنا في التعرف على صفات المتقين بتلك الآيات؛ بدءاً بما بدأ الله به، ولما في هذه البداية التي بدأ الله بها من تنويه بفضل التقوى والإشادة بقيمتها وعلو مكانتها، حيث افتتح الله بها كتابه الكريم، حتى تكون هدف المرء من أول لحظة، وسلوكه حتى آخر لحظة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الآيات المباركات قد جسدت معالم الدين بما

انطوت عليه من معان وأحكام، فقد بينت أولاً: أن هذا الكتاب كتاب هداية بما احتوى من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق، من تمسك بها هُدِىَ إلى صراطٍ مستقيم، وهى الغاية التي أرسل الله تعالى بها رسله، وأنزل لها كتبه. ثم بين أن تلك الهداية إنما تكون لمن اهتدى بها إيماناً وعملاً وهم المتقون، ثم بين للناس صفاتهم ليهتدى بها الخلق ويتسابقوا إليها، وقفَّى بعد ذلك بذكر عاقبتهم وثوابهم في الأولى والآخرة؛ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾، أى في الدنيا والآخرة.(١)

ولذلك كانت هذه الآيات من عجيب النظم ومحكم الكلام في الدرجة العليا من البلاغة والوصف، كما قال الزمخشرى في النص التالى في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ :

«وقد أصيب بترتيبه مفصل البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جىء بها متناسقة هكذا من غير حرف، نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحددة بالأولى معتنقة لها، وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بالكتاب المنعوت بغاية الكمال فكان تقريراً لجهة التحدى وشداً لأعضاده، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادةً وتسجيلاً بكماله، لأنه لا كمال أكمل مما للحق

(1) الأستاذ سيد قطب «فى ظلال القرآن»، يقول مجملاً: «إن السمة الأولى للمتقين هى الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة، الوحدة التي تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب والقيام بالفرائض والإيمان بالرسل كافة واليقين بعد ذلك بالآخرة.. هذا التكامل تمتاز به العقيدة الإسلامية، وتمتاز النفس المؤمنة بهذه العقيدة، والجدير بأن تكون عليه العقيدة الأخيرة التي جاءت ليلتقى عليها الناس جميعاً ولتهيمن على البشرية جميعاً، وليعيش الناس في ظلالها بمشاعرهم وبمنهج حياتهم حياة متكاملة، شاملة للشعور والعمل والإيمان والنظام»، (١/ ٣٩). سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (١/ ٣٩).

واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة، ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبن هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم السرى من نكتة ذات جزالة، ففى الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه، وفى الثانية ما في التعريف من الفخامة، وفى الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف، وفى الرابعة الحذف ووضع المصدر - الذي هو هدى - موضع الوصف الذي هو هاد وإيراده منكراً والإيجاز في ذكر المتقين. زادنا الله اطلاعاً على أسرار كلامه وتبييناً لنكت تنزيله وتوفيقاً للعمل بما فيه».(١)

وهنا سؤال، وهو لم خص المتقين بالهداية والقرآن هدى للناس أجمعين؟ كما قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ وكذلك المتقى مهتدى فكان تحصيلاً للحاصل.

والجواب: ذكر عدد من أهل التفسير أجوبة على هذا السؤال استوفاها منهم جمعاً واختصاراً نظام الدين الحسن بن محمد النيسابورى في كتابه «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» على هامش من تفسير الطبرى، فقال - رحمه الله تعالى: «إن المتقين لّما كانوا هم المنتفعين بالهداية خصوا بالذكر مدحاً لهم كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾، وقوله - سبحانه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ مع أنه ﷺ منذر كل الناس وأيضاً قوله ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ كقولك للعزيز الكريم: أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة واستدامة ما هو ثابت، وبوجه آخر سماهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى «متقين» نحو «من قتل قتيلاً فله

(1) جار الله محمود بن عمر الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢).

سلبه»، فهذا من باب تسمية الشيء بما هو آيل إليه، واللطف فيه أنه لو قال: هدى للصائرين إلى التقوى بعد الضلال، كان إطناباً في غير موضعه، فإن تصدير السورة – التي هى أولى الزهراوين وسنام القرآن وأول المثانى – بذكر أولياء الله والمرتضين من عباده هو اللائق بالمقام فاختص الكلام بإجرائه على الطريقة المذكورة».[1]

---

(1) انظر الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢٠)، فقد بدأ الإجابة على هذا السؤال الزمخشرى وتبعه معظم المفسرين وزاد بعضهم كالفخر الرازى، (١/ ٣٨٢). ثم جمع ذلك النيسابورى كما ذكرنا حيث نقل كلام الكشاف بحروفه، انظر النيسابورى «غرائب القرآن ورغائب الفرقان»، (١/ ١٢٨)، على هامش الطبرى. وانظر النسفى «مدارك التنـزيل»، (١/ ١٠). ود. محمد أديب الصالح «التقوى»، (ص٢٢٢). والبيضاوى «أنوار التنـزيل»، (١/ ١٠٣-١٠٤). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٣٩). وأنها «الزهراوان» ورد في حديث النبى ﷺ عن أبى هريرة ﷺ: «اقرؤوا الزهراوين، واقرؤوا سورة البقرة..» الحديث، أخرجه البزار، والطبرانى في «الأوسط»، وهو حديث حسن.

وسنام القرآن ورد في حديث عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ: «إن لكل شيءٍ سناماً وسنام القرآن سورة البقرة..»، وقد رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى، وذكره الألبانى في الصحيحة (٢/ ١٣٥). وانظر كتاب «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم»، دراسة ونقد للدكتور/ إبراهيم على السيد، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، دار السلام للطباعة.

أما قول الزمخشرى أنها أول المثانى فلعله سبق قلم؛ لأن البقرة أول الطوال السبع، ثم المئين ثم المثانى ثم المفصل. انظر السيوطى «الاتقان في علوم القرآن»، وكذا الزركشى في «البرهان»!!

ونعود إلى تعريف الهدى كما وعدنا. ولصاحب «التحرير والتنوير» العلامة محمد الطاهر بن عاشور فيه كلام نفيس، نشير إلى عيونه:

«وهو على التحقيق الدلالة التي من شأنها الإيصال إلى البُغية، والهدى الشرعى هو الإرشاد

=

إلى ما فيه صلاح العاجل الذي لا ينقص صلاح الآجل، ويكون الإخبار عن الكتاب بأنه هدى إشارة إلى بلوغه الغاية في إرشاد الناس حتى كان هو عين الهدى على ما يقتضيه الإخبار بالمصدر من المبالغة. وفى بيان كون القرآن هدى للمتقين معان ثلاثة:

الأول: أن القرآن هدى في زمن الحال لأن المتقين هم المتقون في الحال لأن زمن الحال هو الأصل في اسم الفاعل، والمراد حال النطق والمصدر عوض عن الوصف باسم الفاعل، ومعنى ذلك أن جميع من نزه نفسه وأعدها لقبول الكمال يهديه هذا الكتاب أو يزيده هدى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾.

الثانى: أنه هدى في الماضى بما نزل من الكتاب، فيكون المراد من المتقين من كانت التقوى شعارهم أى أن الهدى ظهر أثره فيهم فاتقوا، وعليه فيكون مدحاً للكتاب بمشاهدة هديه وثناءً على المؤمنين الذين اهتدوا به، وإن كان غير الغالب الوصف باسم الفاعل فيما مضى فإن قرينة السياق بمدح الكتاب تدل عليه.

الثالث: أنه هدى في المستقبل للذين سيتقون وتُعين عليه قرينه الوصف بالمصدر الذي لا يدل على زمان.

حصل من وصف الكتاب بالمصدر من وفرة المعانى ما لا يحصل لو وصف باسم الفاعل، فقيل: هادٍ للمتقين، فهذا ثناء على القرآن، وتنويه به، وتخلص للثناء على المؤمنين الذين انتفعوا بهديه، فالقرآن لم يزل ولن يزال هدى للمتقين، فإن جميع أنواع هدايته نفعت المتقين في سائر مراتب التقوى، وفى سائر أزمانه وأزمانهم على حسب حرصهم ومبالغ علمهم واختلاف مطالبهم، فمن منتفع بهديه في الدين، ومن منتفع به في السياسة وتدبير أمور الأمة، ومن منتفع به في الأخلاق والفضائل، ومن منتفع به في التشريع والتفقه في الدين، وكل أولئك من المتقين، وانتقاعهم به على حسب مبالغ تقواهم. وقد جعل أئمة الأصول الاجتهاد في الفقه من التقوى، فاستدلوا على وجوب الاجتهاد بقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾، فإن قصر بأحد سعيه عن كمال الانتفاع به، فإنما دل ذلك لنقص فيه لا في الهداية، ولا يزال أهل العلم والصلاح يتسابقون في التحصيل على أوفر ما يستطيعون من الاهتداء بالقرآن»، الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٢٦).

فكأن البداية في كلام الله تعالى كانت بمدح المتقين، وتخصيصهم بالهداية، وذكر صفاتهم، ليكون كل أحد على ذكر من ذلك، وحضّاً للناس على سلوك هذا السبيل، ليفلحوا وليظفروا في الآخرة الأولى.

أما بقية السؤال، وهو كون القرآن الكريم هدى للناس كافة وفى الآية الكريمة هدى للمتقين خاصة، أو كما قال الزمخشرى: هل قيل هدى للضالين؟ فالجواب أن الهدى يطلق في القرآن الكريم ويراد به معنيان: الأول: ما يقر في القلب من الإيمان، وهذا لا يقدر على خلقه إلا الله ﷻ. والثانى: يراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه. فعلى الثانى يكون القرآن الكريم هدى للناس أجمعين، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]، وعلى الأول يكون هدى للمتقين خاصة، وفيه قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله - جل ذكره: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾.(١)

وقد ذكر بعض أهل العلم لطيفة أشارت إليها الآية، وهى قوله تعالى: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ مع قوله: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أن الناس هم المتقون، وفيما عدا المتقين فليسوا أناساً، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل.(٢) لتتبين المكانة السامقة التي أعطاها ربنا ﷻ للمتقين، فيكون باعثاً للمؤمنين أن يغذوا السير في طاعة

---

(1) وانظر ابن كثير«تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٢). والإمام ناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندرى المالكى «الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال»، طبعة دار المعرفة، بيروت، على هامش الكشاف، (١/ ٢٠). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (١/ ١٦٠).

(2) الحسن بن محمد النيسابورى «غرائب القرآن ورغائب الفرقان»، على هامش تفسير ابن جرير، طبعة دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، (١/ ٢٨).

الله، واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو السلوك إليه - سبحانه، كيما يفوزوا بما فاز به المتقون، فينتفعوا انتفاعاً حقيقياً بهدى الكتاب العزيز وبيانه من سنة النبى ﷺ ولابد لذلك - بعد عون الله ﷻ - من عزائم الرجال وتشمير الصادقين.(١)

ونشرع الآن في تفسير ذكر صفات المتقين التي ذكرتها الآيات، إذ هى المقصود الأعظم التي تتطلع إليه النفوس، وتهفو إليه الأفئدة، إذ فلاح الأشخاص وسعادة الأمة إنما تتحقق بذلك، لتعود سيرتها الأولى التي ما برحت أمل المخلصين ونشيد الداعين إلى الله تعالى.

وأول ما يصادفنا من صفات المدح للمتقين قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ وهى إما صفة للمتقين - أى الذين - في محل جر، أو خبر لمبتدأ محذوف هم أو على تقدير -أعنى الذين- وهو على ارتباط هذه الآيات بالمتقين، وهو رأى جمهور المفسرين.(٢) ويكون المعنى: المتقون هم أولاء الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة.. إلى آخر الصفات. وقد ذكرنا صفة إيمان المتقين في

---

(1) د. محمد أديب الصالح «التقوى من هدى الكتاب والسنة»، (ص٢٢٣-٢٤٤).

(2) انظر الزمخشرى «الكشاف» مثلاً (١/ ٢١)، وتبعه جمع على ذلك، أما الوجه الثانى فجوز كون ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ ...﴾ الخ مقتطعاً عن المتقين مبتدأ مُخبر عنه بقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ ...﴾، ورده صاحب «التحرير» بقوله - رحمة الله: «وجوز صاحب الكشاف كونه كلاماً مستأنفا مبتدأ، وكون ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى ﴾ خبره. وعندى أنه تجويز لما لا يليق، إذ الاستئناف يقتضى الانتقال من غرض إلى آخر، وهو المسمى بالاقتضاب. وإنما يحسن في البلاغة إذا أشبع الغرض الأول وأفيض فيه حتى أوعب أو خيفت سآمة السامع، وذلك موقع أما بعد أو كلمة هذا ونحوهما، وإلا كان تقصيراً من الخطيب والمتكلم، لا سيما وأسلوب الكتابة أوسع من أسلوب الخطابة، لأن الإطالة في أغراضه أمكن». «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٢٩).

مطلب «الإيمان» في أول الفصل.

﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾: والمراد بالغيب مالا يدرك بالحواس مما أخبر الرسول ﷺ صريحاً بأنه واقع أو سيقع، مثل وجود الله وصفاته، ووجود الملائكة والشياطين، وأشراط الساعة وما استأثر الله بعلمه.(١)

وقد عبر القرآن الكريم بالفعل المضارع ﴿ يُؤۡمِنُونَ ﴾ وجعله صلة الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ لإفادة استمرار إيمانهم وتجدده وأنه لذلك لا يطرأ عليه شك ولا ريب مما يمدح به هؤلاء المتقون ويثنى عليهم به، وهى صفة لازمة للمتقين تعنى أن إيمانهم شامخٌ ثابتٌ راسٍ لا يزلزله شيء، ولا يفت في عضده شبهة، ولا تردد ولا تعصف به عوادى الفتن، ولا مضلات الهوى، وهو ما يحمل غيرهم على

---

(1) والغيب مصدر بمعنى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾، وربما قالوا: بظهر الغيب، قال الحطيئة:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل لام بظهر الغيب تأتيني

وفى الحديث «دعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب مستجابة». انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٢٩-٢٣٠).

قال الإمام ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤١): «وأما الغيب المراد هنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة، ترجع إلى أن الجميع مراد». وهو ما سبق إليه ابن جرير، ولخصه ابن عطية في «المحرر الوجيز»، (١/ ٨٤)، فقال: «واختلفت عبارة المفسرين في تمثيل ذلك، فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية هو الله – عز وجل، وقال آخرون: القضاء والقدر، وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب، وقال آخرون: الحشر والصراط والميزان والجنة والنار، قال القاضى أبو محمد: وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها.»، وانظر الإمام فخر الدين الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٠)، وصديق حسن خان «فتح البيان»، (١/ ٦٩)، وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (١/ ٧٨).

التأسى بهم، والسير في طريقهم، استمطاراً للهدى والرحمة والفلاح من الله – جل وعلا.

ونلاحظ أن القرآن الكريم خص الإيمان بالغيب دون غيره من مواضع الإيمان بالذكر والتقدم لحكمة جليلة، وهى أن الإيمان بالغيب أصل في اعتقاد صحة ما تخبر به الرسل، وإمكان وجوده سواء ما يتعلق بوجود الله أو العالم العلوى، فإذا آمن بذلك تصدى لسماع دعوة الرسول، والنظر فيم يبلغه عن الله تعالى.

وأما من يعتقد بأن ليس وراء عالم الماديات عالم آخر ما وراء الطبيعة، كهؤلاء الدهريين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فهؤلاء وطنوا أنفسهم وأغلقوا قلوبهم على الإعراض عن الدعوة إلى الإيمان بوجود الله تعالى وعالم الآخرة، ومن ثم رأينا إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله بعد الإيمان بالغيب.

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾: الصفة التالية للمتقين هى أنهم يقيمون الصلاة[1]،

---

(1) والإقامة في اللغة مصدر أقام الذي هو معدى قام، عدى إليه بالهمزة الدالة على الجعل، أى جعلها قائمة مأخوذ من: قامت السوق، إذا نفقت وتداول الناس فيها البيع و الشراء. وأما الصلاة المقصودة في الآية فهى العبادة المخصوصة، المشتملة على قيام وقراءة وركوع وسجود وتسليم. والصلاة اسم جامد بوزن فَعلَة، محرك العين، وقد جاء هذا اللفظ في كلام العرب بمعنى الدعاء، كقول الأعشى:

تقول بنتى وقد يممت مرتحـــلا ... يا رب جنب أبى الأوصاب والوجعا

عليك مثل الذي صليت فاغتمضى ... جفنا فإن لجنب المــرء مضطجعا

يقول: عليكِ من الدعاء مثل الذي دعوتيه لى.

ويقول الرسول ﷺ: «إذ دعى أحدكم إلى طعام فليجب، وإن كان صائما فليُصلِّ»، أى ليَدْعُ لأهله، وإنما أطلقت على الدعاء لأنه يلازم الخشوع والانخفاض والتذلل. انظر الطاهر

وهى معطوفة على قوله تعالى: ﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾، فبعد أن مدحهم بأخص خصائص الإيمان -وهو الإيمان بالغيب- وصفهم برأس العبادات البدنية، التي هى العلاقة الخاصة بين المرء وربه -سبحانه، وهى الصلاة، إذ هى عمود الدين، والفارق للإنسان بين الإيمان والشرك والكفر.

أما إقامة الصلاة فقد ذكر الإمام ابن كثير[1] عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قوله: «إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها»، وعن قتادة قوله: «إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها». ويوضح ذلك الإمام ابن القيم فيقول في كتاب «الصلاة وحكم تاركها»: «وأقيموا الصلاة» فأمرنا بإقامتها، وهو الإتيان بها قائمة تامة القيام والركوع والسجود والأذكار، وقد علق سبحانه الفلاح بخشوع المصلى في صلاته، فمن فاته خشوع الصلاة لم يكن من أهل الفلاح، ويستحيل الخشوع مع العجلة والنقر قطعاً. بل لا يحصل الخشوع قط إلا مع الطمأنينة، وكلما زاد طمأنينة ازداد خشوعاً. وكلما قل خشوعه اشتدت عجلته حتى تصير حركة يديه بمنزلة العبث الذي لا يصحبه خشوع ولا إقبال على العبودية ولا معرفة بحقيقة

=

بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٣٣). وقد تردد أئمة اللغة في اشتقاقها: ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٢-٤٣)، والرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٢-٣٩٤)، والبيضاوى «أنوار التنـزيل»، (١/ ١١٨-١١٩)، والألوسى «روح المعانى»، (١/ ١٩٢-١٩٣)، وابن جرير «جامع البيان»، (١/ ٨٠-٨١)، والزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢٢-٢٣)، والراغب الأصبهانى «المفردات»، (ص٤٢١).

(1) الحافظ إسماعيل بن كثير القرشى «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٢). وقد ذكر الراغب الأصبهانى في «المفردات» سبب تخصيص الصلاة بالإقامة، فقال: «وإنما خص لفظ الإقامة تنبيهاً أن المقصود من فعلها توفية حقوقها وشرائطها، لا الإتيان بهيئتها فقط، ولهذا روى أن المصلين كثير والمقيمين لها قليل». المفردات، (ص٤٢١).

العبودية، والله -سبحانه وتعالى- قد قال: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقال: ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقال: ﴿ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقال: ﴿ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾، وقال لموسى عليه السلام: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضع من التنـزيل إلا مقروناً بإقامتها، فالمصلون في الناس قليل، ومقيم الصلاة منهم أقل القليل».[1]

وهذا يبين أهم ما يكون عليه المتقون بعد الإيمان من صلة عميقة بالله تعالى، تظهر في سرعة إقبالهم على الوقوف بين يدى ربهم، بمجرد أن ينادى عليهم بذلك، فيأتون متطهرين، ويقفون خاشعين يناجون ربهم، ويتلون كتابه، ويتدبرون آياته، ليعلنوا بذلك خضوعهم له، ومحبتهم إياه، وأن صلاتهم له هى قرة أعينهم، وسكينة نفوسهم، وطمأنينة قلوبهم، وسكون أفئدتهم، بها يواجهون حياتهم بهمة وقوة وانشراح، مع ما ينتظرهم من نعيم الله في الآخرة.

وقد استعمل القرآن الكريم كذلك الفعل المضارع يقيمون ليدل على محافظتهم على صلاتهم، وتكرر ذلك منهم، وليكون الثناء عليها بالمواظبة على الصلاة أصرح.[2]

وقد صرح بالثناء عليهم في مواضع شتى، لمحافظتهم على الصلاة فقال: ﴿

---

(1) الإمام محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية «الصلاة وحكم تاركها»، المكتبة القيمة، (ص١٢٣).

(2) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٣٢). وجاءت بصيغة الجمع ﴿ أَقِيمُواْ ﴾ و﴿ أَقَامُواْ ﴾ و﴿ يُقِيمُونَ ﴾ و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، كل ذلك ليدل على شرعية وأهمية الجماعة فيها، ليستشعر المرء منها تلك الحكم والعظات المقربة لله تعالى، الحاملة للمؤمنين على الوحدة والمساواة، وما يبنى على ذلك من التعارف والتآلف والمودة والتكامل.

وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ [المؤمنون: ٩]، و﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ۝٣٥ ﴾ [المعارج: ٣٤-٣٥]، فلا يسع امرأً يتقى الله أو يدعى ذلك إلا أن يكون على ذلك العهد مع الصلاة.

﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ : كثيراً ما يقرن القرآن الكريم بين الصلاة والزكاة، آمراً بهما، مادحاً أصحابهما، معبراً بتعبيرات مختلفة عن حسن ذلك. والحث عليه ليكون المرء مؤمناً حقاً، وحكمة ذلك كما يشير الإمام ابن كثير أن الصلاة حق الله وعبادته، وهى مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي»[1] أى التكامل الذي يصلح به حال الناس في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. فما إن يقوم المسلم بحق الله وبحق الناس، حتى يحوز بذلك الكمالات التي يستحق بها رضا الله تعالى، ويحصل بذلك سعادة الدنيا في مجتمع يسوده التكافل والتراحم، وهو نعيم الدنيا، مع ما يرجوه من نعيم الآخرة.

وأول ما تشير إليه الآية أنهم – هؤلاء المتقون – يعتقدون أن المال مال الله تعالى ﴿ رَزَقۡنَٰهُمۡ ﴾، وأنهم مستخلفون فيه، ينفقونه فيما يرضى واهبه، ويصرفونه فيما أمرهم به من وجوه الإنفاق التي يحبها، ثم بفضله يزيدهم منه في الحياة الدنيا «ما نقص مال من صدقة»[2]، ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ ﴾

---

(1) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٢): «وأصل الإنفاق إخراج المال من اليد، ومنه نفق البيع إذا كثر المشترون له، ونفقت الدابة إذا خرجت روحها، نفق كنفد، وكل ما كان فاؤه نوناً وعينه فاءً يدل على الخروج والذهاب». وانظر الزمخشرى «الكشاف» (١/ ٢٣). والزمخشرى «أساس البلاغة»، مادة نفق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م. والرازى «التفسير الكبير» (١/ ٣٩٥). وصديق حسن خان «فتح البيان (١/ ٦٨).

(2) رواه مسلم(٢٥٨٨)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٣٨٦)، بلفظ: «ما

[إبراهيم: ٧]، ثم يثيبهم عليها أجزل الثواب وأكمله أحوج ما يكونون إليه: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧ ﴾ [الحديد: ٧].

يقول الأستاذ/ سيد قطب - رحمه الله تعالى: «ومن هذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق والتضامن بين عيال الخالق، والشعور بالأسرة الإنسانية وبالأخوة البشرية، وقيمة هذا كله تتجلى في تطهير النفس من الشح وتزكيتها بالبر. وقيمتها أنها ترد الحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن، وأنها تؤمِّن العاجز والضعيف والقاصر، وتشعرهم أنهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس، لا بين أظفار ومخالب ونيوب».(١)

نرجع إلى الآية ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ صلة ثالثة في وصف المتقين، مما يحقق معنى التقوى وصدق الإيمان، من بذل عزيز على النفس في مرضاة الله، لأن الإيمان لما كان مقره القلب ومترجمه اللسان، كان محتاجاً إلى دلائل صدق صاحبه، وهى عظائم الأعمال، من ذلك التزام آثاره في الغيبة الدالة عليه ﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ ومن ذلك ملازمة فعل الصلوات، لأنها دليل على تذكر المؤمن من آمن به. ومن ذلك السخاء ببذل المال للفقراء امتثالاً لأمر الله بذلك، وعبر كذلك بالمضارع لاستمرار ذلك وتكرره، حتى صار صفة لازمة لهم يثنى عليهم بها.

وأريد بالإنفاق هنا بثه - أى المال - في الفقراء وأهل الحاجة، وتسديد نوائب المسلمين بقرينة المدح، ولا يمدح المرء بالإنفاق على نفسه وعياله، فلا يعتنى الدين بالتحريض عليه.(٢)

=

نقصت صدقة من مال».

(١) الأستاذ سيد قطب، «فى ظلال القرآن»، (١/ ٤٠).

(٢) والرزق ما يناله الإنسان من موجودات هذا العالم، يسد بها ضروراته وحاجاته، وينال به

ومن الإنفاق ما هو واجب وهو حق صاحب الرزق، للقرابة وللمحاويج من الأمة ونوائب الأمة كتجهيز الجيوش والزكاة وبعضه محدد وبعضه تفرضه المصلحة الشرعية.

ومن الإنفاق ما هو تطوع من نفع ما دعا الشرع إلى نفعه لقوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ وأراد به الصدقة لقوله تعالى: ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

وكل هذه الإنفاقات داخلة تحت الآية، وإليه أشار ابن جرير - رحمه الله - بعد ذكر الأقوال الواردة في ذلك فقال: «فكان معلوماً أنه إذا لم يخصص مدحهم ووصفهم بنوع من النفقات المحمود عليها صاحبها دون نوع بخبر ولا غيره

=

ملائمه، فيطلق على كل ما يحصل به سد الحاجة من الطعام والثياب والحيوان والشجر والنقد وبما يزيد على ذلك. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ أى مما تركه الميت، وقال في قصة قارون: ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ وذلك في كنوز قارون، وقوله: ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ ﴾ والرزق شرعاً عند أهل السنة كالرزق لغة فيطلق على الحلال والحرام، وخالف الزمخشرى في ذلك ممثلاً لرأى المعتزلة الباطل في المسألة. والإنفاق إعطاء الرزق فيما يعود بالمنفعة على النفس والأهل والعيال، ومن يرغب في صلته أو التقرب لله بالنفع له من طعام أو لباس. وعرَّف الفخر الرازى الرزق، (١/ ٣٩٤)، من «التفسير الكبير»، بأنه الحظ ولم يرتض رأى الجمهور. انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٣٤-٢٣٦). والألوسى «روح المعانى» (١/ ١٩٣-١٩٦). وصديق خان «فتح البيان» (١/ ٦٨). وانظر البيضاوى، «أنوار التنزيل» (١/ ١١٩)، حيث وافق الفخر في المعنى اللغوى ووافق الجمهور من المفسرين على كون العرف خصصه بما ينتفع به، وجار الله الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٤٣).

أنهم موصوفون بجميع معانى النفقات المحمود عليها صاحبها من طيب ما رزقهم ربهم من أموالهم وأملاكهم».[١]

واهتماماً بالرزق في عرف الناس وماله من المعزة على النفس قدم المفعول على الفعل ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ كقوله تعالى في إظهار تلك المعزة: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ إيذاناً بأنهم ينفقون مقدمين رضا الله – سبحانه – على ميل أنفسهم وهواها، مما يستحقون معه المدح بالتقوى.

ولما كان مبنى الشريعة على رفع الحرج النفس وعدم تكلفتهم إياه جئ بمن التبعيضية إشارة إلى أن المطلوب شرعاً إنفاق بعض المال وهو يقل ويزداد بحسب حال المكلفين فالواجب ما قدرت الشريعة مقاديره، وأنصبته من الزكاة، والإنفاق على الزوجة والولد، وما زاد على الواجب لا ينضبط، بل كلما زاد فهو خير.[٢] وهو متروك لحبهم للخير ومسارعتهم إليه تشبهاً بالنبى ﷺ حيث كان

---

(١) ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (١/). وانظر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٤-٣٩٦). والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٣٥).

(٢) هذا ما رجحه بعض المفسرين وهو ما نعتقده حقاً في من التي للتبعيض، وإن ذهب بعضهم أنها للتبعيض نعم ولكن فائدتها الكف عن الإسراف والتبذير المنهى عنه، وهو قول الزمخشرى ومن تبعه كالفخر الرازى والنسفى والبيضاوى. وإن قال باحتمال العموم كذلك فقال: «ويحتمل أن يراد به الإنفاق من جميع المعادن التي آتاهم الله من النعم الظاهرة والباطنة ويؤيده قوله ﷺ: «فإن علماً لا يقال به ككنز لا ينفق منه». وإليه ذهب من قال ومما خصصناهم به من أنواع المعرفة يفيضون»، وذهب الأكثرون إلى العموم كابن جرير وابن كثير وصديق خان وابن عطية والألوسى حيث رد القول الأول صريحاً في «روح المعانى» فقال: «وأما إذا كان المراد الإنفاق مطلقه الأعم ففائدة إدخالها الإشارة إلى أن إنفاق بعض المال يكفى في اتصاف المنفق بالهداية والفلاح، ولا يتوقف على إنفاق جميع المال، وقول مولانا البيضاوى تبعاً للزمخشرى: «إنه للكف عن الإسراف المنهى عنه» مخصوص بمن لم يصبر على الفاقة ويتجرع مرارة الإضافة! وإلا

أجود بالخير من الريح المرسلة، ويعطى عطاء من لا يخشى الفقر.[1] فأريحية المتقين وحبهم للإنفاق لا يقف عند حد. وهم درجات عن الله.

ونختم هذه الصفات بشيء مما ختمه بها أهل العلم ونلخص ما ذكره العلامة الطاهر بن عاشور - رحمه الله تعالى - في «التحرير والتنوير» حيث هو أوفاها، فقال - رحمه الله - ما ملخصه: وإنما اختير ذكر هذه الصفات لهم دون غيرها لأنها أول ما شرع من الإسلام فكانت شعار المسلمين وهى الإيمان الكامل وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولأن هذه الصفات دلائل إخلاص الإيمان، لأن الإيمان بما لا يصل إليه الحسُّ أدل دليل على قوة اليقين حتى إنه يتلقى من الشارع مالا قبل للرأى فيه. وشأن النفوس أن تنبو عن الإيمان به لأنها

=

فقد تصدق الصديق ﷺ عنه بجميع ماله ولم ينكره عليه ﷺ لعلمه بصبره واطلاعه على ما وقر في قلبه». ومن ها هنا لما قيل للحسن بن سهل: لا خير في الإسراف. قال: «لا إسراف في الخير»، وإن كان احتجاجه بالصبر على الفاقة فيه نظر لأن الصديق لم يكن كذلك بل كان مستيقناً بما عند الله أكثر مما في يده.

انظر جار الله محمود الزمخشرى «الكشاف» (١/ ٢٣)، وعبد الله بن عمر البيضاوى «أنوار التنـزيل»، (١/ ١٢١-١٢٢). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٥). وعبد الله بن أحمد النسفى «مدارك التنـزيل»، (١/ ١٢). وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (١/ ٨١)، وإسماعيل ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٢)، والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٣٦). والألوسى «روح المعانى»، (١/ ١٩٥-١٩٦). صديق خان «فتح البيان»، (١/ ٦٨). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٣٨) بنفس حروف البيضاوى.

(1) أما حديث «كان أجود بالخير من لريح المرسلة» فقد رواه البخارى (٣٥٥٤)، ومسلم (٢٣٠٨)، وحديث «يعطى عطاء من لا يخشى فاقه» رواه مسلم (٢٣١٢). وانظر القاضى عياض اليحصبى «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» وشرحه لملا على القارى، دار الكتب العلمية، بيروت، (١/ ٢٥٠-٢٥١).

تميل إلى المحسوس فالإيمان به على علاته دليل قوة اليقين بالمخبر وهو الرسول ﷺ، ولأن الصلاة كلفة بدنية في أوقات لا يتذكرها مقيمها أى محسن أدائها، إلا الذي امتلأ قلبه بذكر الله تعالى على ما فيها من الخضوع وإظهار العبودية ولأن الزكاة أداء المال وقد عُلم شح النفوس، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ [المعارج: ٢١].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٤]: ومازلنا نتشرف بكلام الله تعالى في ذكر صفات المتقين(1)، فبعد أن بين – سبحانه – دلائل تقواهم بأركان الإيمان، عطف بصفة أخرى لا يتم إيمانهم إلا بها، وهى الإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ من عند الله – جل وعلا، وكذلك بما أنزل من قبل على رسل الله المتقدمين، تنبيهاً على وحدة المصدر وعلى وحدة أصول العقيدة المنـزلة على جميع الرسل، وأن الدين الذي ارتضاه الله للناس كافة دينٌ واحد ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿ شَرَعَ لَكُم

(1) يقضى المقام أن يُذكر أن الإمام ابن جرير اعتمد وجهاً آخر غير ما ذهبنا إليه من أقوال أهل العلم في تفسير الآية في كونها صفة للمتقين، من قبل وتبعه على ذلك جمع من أهل العلم، حيث ذكر أنها نزلت في أهل الكتاب الذين آمنوا بالكتاب المنزل من قبل، كعبد الله بن سلام من يهود، وصهيب الرومى من النصارى، ثم آمنوا بالنبى ﷺ. ونسب هذا القول لابن عباس – رضى الله عنهما – ورجحه ونصره بالأدلة وذكره الفخر الرازى قولاً واحداً، وذكره الزمخشرى، وإن قال: «يحتمل الوجه الذي ذكرنا»، ورجحه الألوسى، وكذلك هو ترجيح العلامة الطاهر بن عاشور، وذهب ابن كثير وغيره من المحققين إلى الذي ذكرنا، وهو قول تؤيده الأدلة. انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (١/ ٨١). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤) وما بعدها. والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٦). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، (١/ ١٩٧). وإسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٣-٤٤). وصديق خان «فتح البيان»، (١/ ٧٠-٧١). وجار الله الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢٣).

مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وأنه لا يتم إيمان المرء إلا أن يؤمن بهم جميعا ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] وأن تكذيب أحدهم أو التفريق بينهم تكذيب لجميعهم ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]. ولم يكن لهم رسول إلا هو، فدل على أن تكذيبه تكذيب لجميع المرسلين، وكأنه كان تنبيهاً منذ فجر الدنيا على هذه الحقيقة الخالدة والباقية ما بقيت البشرية، والتي تبين سمو الإسلام وارتفاع عظمته وأنه فعلاً الدين الخالد والرسالة الخاتمة الصالحة لكل زمان مكان.

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ : ختم بهذه المنقبة العظيمة الحاملة على فعل الخير والمسارعة إلى أبواب البر المانعة من الشر والعدوان والإثم. فالمؤمن بلقاء الله – سبحانه – الذي وصل إيمانه إلى درجة اليقين، لا شك يخاف ربه، قد قام في قلبه رقيب عليه من نفسه يحسن له صورة الخير والطاعة والأخلاق الفاضلة، ويقبح له صورة المعصية والمخالفة والأخلاق السيئة، فكان بلزومه ذلك تقياً ممدوحاً عند الله – جل وعلا.

والآخرة صارت علماً بالتغليب على الدار الآخرة، وهى وصف مؤنث لمقدَّر هو الحياة، وسميت كذلك لإتيانها بعد الحياة الدنيا متأخرة عنها. والمعنى أنهم يوقنون بالبعث والحياة بعد الموت[1]، وما يترتب على ذلك من الحساب والجزاء،

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤٠). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٨). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، (١/ ٢٠١). وصديق خان «فتح البيان»، (١/ ٧٠). والنسفى «مدارك التنزيل»، (١/ ١٢). والزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢٤)، والطبرى «جامع البيان»، (١/ ٨١-٨٢).

وأمور الآخرة الثابتة بالكتاب والسنة الصحيحة.

قال ابن عباس - رضى الله عنهما: «أى يصدقون بما جئت به مِن الله، وما جاء به مَن قبلك مِن المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاءهم من ربهم ﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾، أى بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان».[1]

التعبير بـ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ دون يؤمنون وبناؤه على الضمير ﴿ هُمۡ ﴾ له معان جميلة يفيدها هذا التركيب القرآنى البديع:

فاليقين أولاً هو العلم بالشيء عن نظر واستدلال، أو بعد شك سابق مشترك بين ذلك، أو هو ما غلب على القلب واستولى عليه، على اختيار الغزالى في الإحياء[2]، فيكون اليقين أخص من الإيمان والعلم، لذلك لا يطلقونه على

---

(١) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٣). والطبرى «جامع البيان»، (١/ ٨٢). وكأنه إشارة ما سينـزل أيضا لصحة يقينهم وقوة إيمانهم: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى عيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه).

(٢) انظر ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤٠). والألوسى «روح المعانى»، (١/ ٢٠١). والإمام الغزالى حجة الإسلام (ت: ٥٠٥) «إحياء علوم الدين»، طبعة الشعب، (١/ ١٢٣-١٢٤). والرازى «التفسير الكبير» (١/ ٣٩٨). أمَّا اختيار الغزالى في الإحياء فقال في «روح المعانى»: والقلب يميل إليه (١/ ٢٠١). أما العلامة ابن عاشور فقال مستطرداً في تعريف اليقين: «وقد يطلق على الظن القوى إطلاقاً عرفياً حيث لا يخطر بالبال أنه ظن ويشتبه بالعلم الجازم، فيكون مرادفاً للإيمان والعلم.«التحرير والتنوير». (١/ ٢٤٠). ولهذا التعريف الأخير قال محمود الألوسى في «روح المعانى»: «فعبر باليقين بدل الإيمان دفعاً للتكرار» والتعريف الذي أشرنا إليه هو ما اعتمدنا، لكونه اللائق بالتعبير القرآنى الحكيم. محمود الألوسى «روح المعانى»، (١/ ٢٠١).

علم الله ولا على العلم الضرورى.

فالتعبير عن إيمانهم بالآخرة بـ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ المضارع لثبات ذلك ودوامه، ثم استخدم لفظ اليقين يشعر بأنه علم حاصل عن طريق التأمل وغوص الفكر في الاستدلال، لأن الآخرة غائبة عن المشاهدة غريبة بحسب المتعارف، فلكثرة غرائب متعلقات الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب وتفاصيل أنواع النعيم والتعذيب، ونشأه أصحابها على خلاف النشأة الدنيوية مع إثبات المعاد الجسمانى مما هو أغرب من الإيمان بالكتب المنزلة حتى أنكره ونفاه كثير من الناس كالمشركين والدهريين، ناسب أن يقرن هذا الأمر المهم الغريب الذي حارت عقول الكثيرين في إثباته بالإيقان، إظهاراً لكمال المدح وإبداءً لغاية الثناء لهؤلاء المتقين الأبرار.(١)

أما تقديم المجرور ﴿ وَبِٱلْأَخِرَةِ ﴾ على ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ وهو عامله للاهتمام بهذا الأمر الجلل كما أشرنا ورعاية للفاصلة، ويقول العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» رداً على ما ذكره الزمخشرى ومتابعوه من أن التقديم يفيد الحصر أى حصر اليقين على حقيقة الآخرة لا يتعداها إلى خلاف حقيقتها كما يزعم اليهود مثلاً حيث قالوا: ﴿ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١] وقولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ ﴾ [آل عمران: ٢٤]، وزعموا أن التلذذ حسى بالنسيم والأرواح، يقول – رحمه الله تعالى: «وأرى أن في هذا التقديم ثناء على هؤلاء بأنهم أيقنوا بأهم ما يوقن به المؤمن. فليس هذا التقديم بمفيد حصر، إذ لا يستقيم معنى الحصر هنا بأن يكون المعنى أنهم يوقنون بالآخرة دون غيرها، وقد تكلف صاحب الكشاف

(١) انظر محمود الألوسى «روح المعانى»، (١/ ٢٠٢).

وشارحوه لإفادة الحصر».[١]

أما تقديم ﴿ هُمۡ ﴾ على ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ أى تقديم المسند إليه على المسند، فهو لإفادة تقوية الخبر، أى يوقنون إيقاناً قوياً جازماً، لا مرية فيه ولا تردد ولا شك، وهو كذلك من علامات الثناء.

كما أنه إشارة إلى أن اعتقاد مخالفيهم في الآخرة جهل محض، أى أن اعتقادهم هم يقين، فغيرهم ومخالفوهم ليسوا على يقين، بل هم في أدنى درجات الشك جهلاً وتخييلاً.[٢]

ونختم الكلام في هذه الآية بقول الفخر الرازى: «إن الله تعالى مدحهم على كونهم متيقنين بالآخرة، ومعلوم أنه لا يمدح المرء بأن يتيقن وجود الآخرة فقط، بل لا يستحق المدح إلا إذا تيقن وجود الآخرة مع ما فيها من الحساب والسؤال وإدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار. رُوى عنه ﷺ : «يا عجباً كل العجب من الشاك في الله وهو يرى خلقه، وعجباً ممن يعرف النشأة الأولى ثم ينكر النشأة الآخرة، وعجباً ممن ينكر البعث والنشور وهو في كل يوم وليلة يموت ويحيا – يعنى النوم واليقظة – وعجباً ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور، وعجباً من المتكبر الفخور وهو يعلم أن أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة».[٣]

وننتقل إلى الموضع الثانى من مواضع ذكر صفات المتقين، وهو قوله تعالى:

---

(1) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤٠).

(2) بتصرف من الألوسى «روح المعانى»، (١/ ٢٠٢). وابن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤١). وقال في الكشاف: «هو تعريض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان»، (١/ ٢٤).

(3) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٨).

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

نزلت هذه الآية الكريمة بعد أن غيرت القبلة من بيت المقدس - حيث كان يصلى المسلمون إليه - إلى الكعبة المشرفة، وشغب سفهاء أهل الكتاب على هذا الأمر، وشق على نفوس طائفة من المسلمين.

نزلت ليبين لهم المولى سبحانه أن البر ليس في التوجه شرقاً أو غرباً، وإنما البر والتقوى في طاعة الله وامتثال أوامره مما أشار الله - جل وعلا - إلى تفصيله في الآية كما قال - سبحانه وتعالى - في شأن الأضاحى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

يقول الإمام ابن كثير فيما يرويه عن الإمام سفيان الثورى - رحمه الله - في تفسير الآية: «هذه أنواع البر كلها»، ثم يعقب فيقول: «وصدق - رحمه الله - من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله».[1] ومعنى هذا القول قد ذكره الإمام القرطبى من قبل حيث يقول: «الخامسة: قال علماؤنا هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام، لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة: الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته - وقد أتينا عليها في «الكتاب الأسنى» - والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار - وقد أتينا عليها في كتاب «التذكرة» - والملائكة والكتب المنزلة وأنها حق من

(1) الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٢٠٧).

عند الله كما تقدم والنبيين وإنفاق المال فيما يَعِنُّ من الواجب والمندوب وإيصال القرابة وترك قطعهم وتفقد اليتيم وعدم إهماله والمساكين كذلك ومراعاة ابن السبيل – قيل: المنقطع به وقيل الضيف – والسّؤّال وفك الرقاب والمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهود والصبر في الشدائد، وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب».[1]

ولم يترك أحد من المفسرين وأهل العلم ممن تكلم في الآية من الإشارة إلى كونها جامعة لكل الكمالات البشرية تصريحاً أو تلويحاً. ونذكر قول بعض منهم لنفاسته – وإن كان كله نفيساً – ونشير إلى الباقي في مواضعه – إن شاء الله تعالى.

يقول العلامة الطاهر بن عاشور – رحمه الله تعالى: «فلله هذا الاستقراء البديع الذي يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلام الحكيم، وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع، من أصول العقيدة وصالحات الأعمال، فالإيمان وإقام الصلاة هما منبع الفضائل الفردية، لأنهما ينبثق عنهما سائر التحليات المأمور بها، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها، والمواساة تقوى عنها جانب الأخوة والاتحاد، وتسدد مصالح للأمة كثيرة، وببذل المال في الرقاب يتعزز جانب الحرية المطلوبة للشارع، حتى يصير الناس كلهم أحرارا، والوفاء بالعهد فيه فضيلة فردية وهى عنوان كمال النفس، وفضيلة اجتماعية، وهى ثقة الناس بعضهم ببعض، والصبر فيه جماع الفضائل وشجاعة الأمة، ولذلك قال تعالى هنا: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ فحصر فيهم الصدق والتقوى حصراً ادعائياً للمبالغة، ودلت على أن المسلمين قد تحقق فيهم معنى البر، وفيه تعريض بأن أهل الكتاب لم يتحقق فيهم، لأنهم لم يؤمنوا ببعض الملائكة وبعض النبيين،

(1) الإمام أبو عبد الله محمد أحمد القرطبى «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٤١).

ولأنهم حرموا كثيراً من الناس حقوقهم، ولم يفوا بالعهد، ولم يصبروا، وفيها أيضاً تعريض بالمشركين، إذ لم يؤمنوا باليوم الآخر والنبيين والكتب، وسلبوا اليتامى أموالهم ولم يقيموا الصلاة ولم يؤتوا الزكاة».[1]

وبعد.. نبدأ في التعرف على هذه الجوانب المضيئة للمتقين، والتي ذكرتها الآية حتى يُتبع المؤمن القول بالعمل، ليتصف بهذه الصفات، فيتحقق له صدقُ إيمانه وأسبابُ سعادته في الدنيا والآخرة، وليتحقق للمجتمع ما يرجو من تقدم ورقى ورحمة وتكافل.

وكلمة البر عند ذكر صفات المتقين في هذه الآية الكريمة تذكر بما أسلفنا من القول بأن البر عند إفراده هو التقوى كما ذكر الله تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ فكان الآية معناها: ولكن من اتقى صفته كيت وكيت، بدليل ختم الآية بقوله – جل وعلا: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾.

وأول ما تعودنا عليه أن يصادفنا من صفات المتقين هو الإيمان الحق، الذي بنى عليه بعد ذلك الإتيان ببقية الأوصاف، تصديقاً لهذا الإيمان، ودليلاً على ثباته وقوته، حيث لا يقبل عمل إلا بعد الإيمان، فهو أساس الأعمال وقاعدتها، وقد ذكرنا معناه في الآية الأولى.

وإن كان في هذه الآية ذكر تفصيل الإيمان الوارد في حديث جبريل أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لما سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان. وفى هذه الآية هنا قدم اليوم الآخر بعد الإيمان بالله مباشرة، على غير ما ورد في آيات أخرى، وعلى غير ما ورد كذلك في حديث جبريل، لأنه المناسب لحال المتقين الأبرار. يقول الراغب الأصبهانى في «المفردات»: «ولما ذكر حال المؤمنين، والمؤمن أقرب الأشياء إليه أمر الآخرة، فكل ما يفعله ويتحراه فإنه يقصد به

(1) العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣٢).

وجه الله تعالى، ثم أمر الآخرة، فقدم ذكره تنبيهاً على أن البر مراعاة الله، ومراعاة الدار الآخرة، ثم مراعاة غيرهما».[١]

والتفصيل مناسب هنا دون آية البقرة، لأنه لما نفى أن يكون التوجه في ذاته قبل الشرق والمغرب براً، شرع في ذكر البر الحق، الذي ينبغى أن يحرص عليه المؤمنون، فكان لائقاً أن يوضحه لهم بهذه الطريقة، التي تزيل عنهم ما اعتقدوا مما لا ينبغى، وتفصل الحق وتبينه فيما يجب أن يعتقدوا.

ولذلك كان قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ ﴾[٢] تحقيقاً للحق بعد إبطال الباطل، وتفصيلاً لخصال البر، مما يختلف باختلاف الشرائع، ومما لا يختلف، أى ولكن البر برُ من أمن بالله وحده إيمانا بريئا من شائبة الإشراك،لا كإيمان اليهود والنصارى والمشركين... إلخ ما ذكر، وكلها تعريض بالإيمان الباطل لبقية الفرق.

﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ : فبعد أن ذكر ما ينبغى في حق الله تعالى من

---

(1) انظر أبا حيان الأندلسى «البحر المحيط»، (٢/ ١٣٤)، حيث ذكر كلام الراغب.

(٢) والبر هنا منصوب خبر ليس مقدم كما في قوله:

سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواء عالم وجهول

وأخر الاسم وهو المصدر المؤول؛ لأن فيه طولاً، لو روعى الترتيب لفات تجاوب أطراف النظم الكريم. وعبر بالبر للمبالغة، أى البر كل البر يؤدى إلى الثواب العظيم هو بر من آمن. والبر أشرنا إليه من قبل، وهو سعة الإحسان وشدة المرضاة والخير الكامل الشامل، ولذلك توصف به الأفعال القوية الإحسان، فيقال: بر الوالدين، وبر الحج، وقال تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾، وذكر أهل التفسير واللغة وجوه القراءات والبلاغة والنحو في الآية وترجيح كلٍ. انظر محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٢٨-١٢٩)، والفخر الرازى «التفسير الكبير» (٣/ ١٣-١٤)، والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم» (٨/ ٢٢٧-٢٢٨)، والزمخشرى «الكشاف» (١/ ١٠٩)، والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٣٨-٢٣٩).

الإيمان الصحيح بأن يعبدوه لا يشركوا به شيئا وأن يؤمنوا بسائر مواضيع الإيمان انتقل إلى حق الخلق يستكمل معانى البر وصفات المتقين وهو إتمام الكمالات البشرية التي يسعد بها الناس أفرادا وجماعات وتستقيم بها أحوالهم مع ما يرجون بذلك من ثواب الله في الآخرة.

فأول ما بدأ به قوله: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ وهو إعطاؤه المال، وبذله مع حب المال إذ الضمير يعود عليه[1]، وتمكن هذا الحب من سويداء القلب بدليل المجاز في قوله على حبه التي تدل على التمكن من هذا الحب كقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٥] فيكون هذا الإعطاء مع الحب وعدم الزهادة فيه ثناء عليهم بأنهم يفعلون ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى ورجاء أجره،إذ لا يُقَدِّم على حب المال إلا محبوبا أعظم ومطلوباً أجل وهو حب الله تعالى وطلب رضوانه. وبهذا نفهم كيف صدقوا وصاروا متقين؟ وكيف كان فعلهم براً؟ وفيه حث لغيرهم أن يتخلقوا بأخلاقهم، ويبادروا إلى الاتصاف بشمائلهم وسجاياهم.

وقوله: ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ في الآية التي معنا مثل قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا ﴾، ويسمى في البلاغة احتراساً وتتميماً يحسن المعنى، كقول زهير:

---

(١) الضمير يعود على المال لا محالة كما ذكر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣٠)، وذكر الرازى والقرطبى والألوسى وغيرهم وجهين آخرين معه، والأول قول ابن عباس - رضى الله عنهما. راجع الفخر الرازى «التفسير الكبير» (٣/ ١٦)، والإمام محمد بن أحمد القرطبى «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٤٢-٢٤٣)، والعلامة محمود الألوسى «روح المعانى» (٢/ ٧٠)، وصديق حسن خان «فتح البيان» (١/ ٢٨٠)، وأبو حيان «البحر المحيط» (٢/ ١٣٥-١٣٦) وغيرها.

مـن يلـق يومـا عـلى علاتـه هرمـاً يلـق الـسماحة فيـه والنـدى خلقـا

وكقول عنترة:

أثنـى عـلى بـما علمـت فـإننى سـهل مخـالفتى إذا لم أظلـم

والشاهد في الأول قوله: «على علاته»، وفى الثانى قول عنترة: «إذا لم أظلم».

وقد ثبت من قوله ﷺ :«أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر».(١) والشاهد في قوله ﷺ : «وأنت صحيح شحيح».

بدأت الآية بذكر أصناف هؤلاء الذين يُؤْتَون المال على حبه لأن إتيانهم المال لا شك يأتى بخير ومصالح، فكانت أن افتتحت بذوى القربى، أى ذوى قرابة المعطى، فالألف واللام في القربى عوض عن المضاف إليه، وقدم ذوى القربى لأن إيتاءهم أفضل، كما قال - عليه الصلاة والسلام: «صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوى رحمك اثنتان صدقه وصلة».(٢) وهذا على قول من قيد ذوى

---

(1) انظر الإمام محمد بن أحمد جرير الطبرى «جامع البيان» (٢/ ٥٦)، والحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٠٨)، والحديث أخرجه البخارى (١٤١٩).

(2) قال صديق خان في « فتح البيان »: «أخرجه أبن أبى شيبه، وأحمد، والترمذى وحسنه، والنسائى، وابن ماجه والحاكم، والبيهقى في سننه من حديث سلمان بن عامر الضبى». وقد ذكره الإمام أبو زكريا يحى بن شرف النووى في «رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين»، دار إحياء الكتب العربية، ص١٥٩)، باب بر الوالدين وصلة الأرحام، وقال: رواه الترمذى وقال: حديث حسن. وبذلك يتبين وهم محقق تفسير البيضاوى «أنوار التنـزيل وأسرار التأويل»، حيث نسبه للصحيحين، وبالمراجعة تبين أنه حديث آخر. انظر فتح البيان (١/ ٢٨٠)، رياض الصالحين (١٥٩)، أنوار التنـزيل (١/ ٤٥٣)، روح المعانى (٢/ ٧٠)، أما حديث الصحيحين وغيرهما من حديث زينب امرأة أبن مسعود أنها سألت رسول الله ﷺ هل تجزئ عنها من الصدقة النفقة على زوجها وأيتام في حجرها فقال:«لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة»، وأخرج الطبرانى والحاكم والبيهقى في سننه من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ

القربى بالمحاويج منهم، وإن كانت الآية عامة لا تختص بمساكينهم على رأى بعض أهل العلم، لما في ذلك من التحابب والتئام الشمل وتحقيق مقصود الشرع من المودة، يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «أمر بالإحسان إليهم لأن مواساتهم تكسبهم محبتهم إياه والتئامهم. وهذا التئام القبائل الذي أراده الله بقوله: ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ فليس مقيداً بوصف فقرهم كما فسر به بعض المفسرين، بل ذلك شامل للهدية لأغنيائهم وشامل للتوسعة على المتضائقين وترفيه عيشتهم إذ المقصود هو التحابب».[1]

وذوى القربى، وما عطف عليه من بقية المعطوفات هو المفعول الأول، والمال هو المفعول الثانى، وقدم الثانى اعتناءً به، لأن المقصود الأعظم إيتاء المال على حبه.[2] وذهب بعضهم إلى أن المال هو المفعول الأول.

﴿ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ ﴾: الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم، وهم ضعفاء صغار دون البلوغ، وكذلك لا قدرة لهم على التكسب، وهم الصنف الثانى الذي وصى الله – سبحانه – به لنرى بذلك مجتمع المؤمنين لا يضيع فيه أحد لضعفه وصغره بل الكل مكفول له حقه في حياة كريمة ملؤها الرحمة والإحسان، حقا واجبا، وفضلا لازما، لا مِنة فيه ولا تكبر.

وبذلك ترى الإسلام قد سبق دعاة حقوق الإنسان بقرون متطاولة، في إقامة مجتمع الود والتراحم، الذي لا حقد فيه ولا تناحر ولا صراع بين طبقاته ولا تفكك وأنانية بين أبنائه، بل كلهم جسد واحد، إذا اشتكى فيه عضو تداعى

=

يقول: «أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح». انظر فتح البيان لصديق خان (١/ ٢٨٠)، وروح المعانى للعلامة محمود الألوسى (٢/ ٧٠).

(1) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣٠-١٣١).

(2) انظر أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى «البحر المحيط» (٢/ ١٣٦).

له سائر الجسد بالحمى والسهر.

بل رأى بعض العلماء إعطاء اليتيم ولو لم يصل إلى حافة الفقر لفقده ما كان ينيله أبوه من رفاهية عيش فإيتاؤهم المال يجبر صدع حياتهم.(١)

وقد حمل بعضهم - كما قال في «البحر المحيط» - اليتامى على حذف أى ذوى اليتامى إذ لا يحسن إعطاء المال اليتيم الصغير الذي لا يميز، ولا يعرف مصلحته، أما إن كان مراهقا والصدقة مما يؤكل أو يلبس وهو يعرف مواقع حقه جاز دفعها إليه هذا لمن خص اليتيم بغير البالغ.أما من لم يخص فإن الصدقة تدفع للبالغ أو لوليه.(٢)

﴿ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ : ومازال البر يأتى على كل ما يمكن أن يوجد في مجتمع الإيمان، مما يعكر صفوه، ويذهب سلامه، فجاء دور المساكين لينتشلهم من الحاجة، ويسد خلتهم، ويقيم أودهم، ويجعلهم أفراداً صالحين، يخافون على وطنهم، ويفتدونه بأرواحهم، لما رأوا من قيامه بحقوقهم وعدم تركهم نهباً للجوع والذل، بينما يرفل غيرهم في الشهوات والملذات في حياة ناعمة، خاصة وأن المسكين لا يُفطن له ولا يسأل كغيره ممن ستأتى صفته فإذا وجد من يسأل عنه ويتفطن له ويواسيه ويهئ له الحياة الكريمة، فانظر إلى صلاح مثل هذه النفس واستقامتها.

يقول الرسول ﷺ فيما يرويه أبو هريرة رضى الله عن ﷺ: «ليس المسكين الذي

---

(1) انظر الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٠٨)، والعلامة محمود الألوسى «روح المعانى» (٢/ ٧٠)، وأبا حيان محمد بن يوسف الأندلسى «البحر المحيط» (٢/ ١٣٦)، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣١).

(2) أبو حيان الأندلسى «البحر المحيط» (٢/ ١٣٦)، الإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير» (٣/ ١٩).

يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه».

فالمسكين من السكون أى أسكنته الحاجة، وهى كذلك من الذلة والضعف، أى الذي أذله الفقر، وهو على وزن (مفعيل) للمبالغة، ولم يكن ليتركه الإسلام على هذا النحو فراعى الإسلام هؤلاء ولم يطق أن يرهم في مجتمع المسلمين حتى أخرج لهم حقوقا غير الزكاة - إذا لم تكف الزكاة - ليكفل لهم حياة كريمة وعيشة مستقرة بين هؤلاء الأبرار الأتقياء ليصير المجتمع كله مجتمع الأبرار الأتقياء.(١)

﴿ وَٱلسَّآئِلِينَ ﴾ : جمع سائل، والسؤال عنوان الحاجة، لأن شأن المرء أن تمنعه نفسه أن يسأل من غير حاجة غالباً، والبر ألا يترك السائل هكذا يريق ماء وجهه، يتكفف الناس، يعطونه مرة ويردونه أخرى، بل من صفات المتقين أن يعطوه مما يحبون من أموالهم بمجرد أن يعلموا بحاله وقد كنى بالسائل هنا عن الفقير لأن آيات القرآن الكريم كثيراً ما تجمع بين الفقراء والمساكين في لزوم رعايتهم ومواساتهم، وإنما قدم المسكين لأنه لا يُتفطن إليه كما ذكرنا والسائل قد عرفنا حاله من سؤاله وكذلك لان المسكين في رأى جمهور أهل اللغة أسوأ حالا

---

(1) انظر العلامة محمود الألوسى، «روح المعانى» (٢/ ٧٠-٧١)، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣١)، و الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٠٨)، الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى «مختار الصحاح»، عنى بترتيبه محمود خاطر بك، المطبعة الأميرية، ١٣٤٠هـ، باب سكن، والحافظ أبا الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى «زاد المسير» (١/ ١٠٩). أما الحديث «ليس المسكين..» فقد رواه البخارى (١٤٧٦)، وانظر الحافظ ابن حجر العسقلانى، «فتح البارى» (٣/ ٣٤٠-٣٤١)، ورواه مسلم (١٠٣٩)، انظر الإمام النووى «شرح صحيح مسلم»، (٤/ ١٣٩).

من الفقير فوجدنا الآية الكريمة تراعى كل حال ليتحقق مقصود الشرع الشريف.

﴿ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ : هو المسافر كما قال مجاهد في تفسيره، وسمى بذلك لملازمته الطريق في السفر، أو لأن الطريق تبرزه فكأنها ولدته، ويطلق كذلك على الضيف ينـزل على المسلمين كما روى عن ابن عباس – رضى الله عنهما، وأفرد في السياق لانفراده عن أحبابه وطنه وأصحابه.(١)

وها قد رأينا عظمة الإسلام في هذا التشريع، كما هو الحال في كل تشريع، أن لابن السبيل حقا في أموال المسلمين يبلغه داره ووطنه سليما معافاً مطمئناً، له في كل طريق أهل وأخوان يقومون بمؤنته، ويؤنسون وحشته، ويخففون عنه آلام الغربة وأوجاع الفراق،علاوة على بذلهم أموالهم ليصل إلى مقصوده.

وقد قام بهذا الخلق النبيل الأوائل من أهل الإسلام، حيث كانت دولته تسهر على شئون أبنائها وشئون رعاياها، كما ذكره د. يوسف القرضاوى(٢)،

---

(1) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى» (٢/ ٧٠)، والحافظ بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٠٨)، والعلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣١).

(2) يقول د. يوسف القرضاوى: «إن عناية الإسـلام بالمسافرين الغرباء والمنقطعين لهى عناية فذة لم يعرف لها نظير في نظام من الأنظمة أو شريعة من الشرائع.وهى لون من ألوان التكامل الاجتماعى فريد في بابه..، وفى الواقع العملى نجد أبن سعد يروى لنا أن عمر بن الخطاب ﷺ اتخذ في عهده داراً خاصة أطلق عليها «دار الدقيق» وذلك أنه جعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يُحتاج إليه، يعين به المنقطع به، والضيف ينزل بعمر، ووضع عمر في طريق السبل ما بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به،ويحمل من ماء إلى ماء.

وفى عهد خامس الخلفاء الراشدين عمر بن العزيز كتب ابن شهاب الزهرى له السنة في الصدقة فكان منها ابن السبيل حيث يقول: «وسهم ابن السبيل يقسم لكل طريق على قدر من يسلكها ويمر بها من الناس،لكل رجل راحل من ابن السبيل ليس له مأوى ولا أهل يأوى

فكانت الخانات والنُّـزل موجودة في كل طريق المسلمين، مفتوحة ليلاً ونهاراً، تستقبل الطارقين، وتأوى النازلين، تستضيفهم، وتزودهم بما يتمكنون به من مواصلة السير وإكمال الرحلة، كل ذلك من بيت المسلمين حقاً لهم مبذولا بروح المحبة والمودة، بل كذلك يستقبلون ويستضيفون كل أحد ولو كان على غير ملتهم،وانظر حالنا الآن! وحتى لما أن اندثرت تلك المعالم كان واجبا على المسلمين في البوادى وغيرها حق الضيافة لمن مر بهم ممن هذا شأنه.

ويقول العلامة الألوسى في «روح المعانى»: «ولأنه لما لم يكن بين أبناء السبيل والمعطى تعارف غالبا يهوِّن أمر الإعطاء ويرغِّب فيه، أفْرَدَهم ليهون أمر إعطائهم وليشير إلى أنهم وإن كانوا جمعاً، ما ينبغى أن يُعتبروا كنفسٍ، فلا يُضجر من إعطائهم لعدم معرفتهم، وبُعْد منفعتهم».(١)

﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾ : ولما كانت الحرية هدفا مقدسا من أهداف الإسلام – ليخرج الناس من عبادة الناس لعبادة رب الناس، وليكون الناس أحراراً كما ولدتهم أمهاتهم – كان أنْ أمر بإيتاء المال على حبه في تخليصهم من رق العبودية المنتشر تلك الأيام، بعد أن أكد بتشريعات كثيرة على فك الرقاب وإعتاقها كالكفارات وغيرها بل بين في تلك الآية الكريمة أن شأن المتقين ومن أحاسن صفاتهم بذلهم محبوب أموالهم في إعتاق الرقاب وتحرير الأسرى بل وفى شراء العبيد وعتقهم وجعلهم أحراراً ابتغاء وجه الله – تعالى، وقد رأينا مثالا لذلك أبا

=

إليهم فيطعم حتى يجد منزلا أو يقضى حاجته ويجعل في منازل معلومة على أيدى أمناء،لا يمر بهم ابن سبيل له حاجه إلا آووه وأطعموه وعلفوا دابته حتى ينفد ما بأيديهم إن شاء الله». د. يوسف القرضاوى «فقه الزكاة دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة»، طبعة دار الرسالة، ١٤١٢-١٩٩١)، (٢/ ٦٧٤-٦٧٥).

(1) العلامة محمود الألوسى «روح المعانى» (٢/ ٧١).

بكر الصديق ﷺ.

و﴿ وَفِي ٱلرِّقَابِ ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿ ءَاتَى ﴾ أى آتى المال في تخليص الرقاب والرقبة مجاز عن الشخص إذ هى مؤخر أصل العنق وإيراد كلمة ﴿ فِى ﴾ للإيذان بأن ما يعطى لهؤلاء مصروف في تخليصهم لا يملكونه كما في المصارف الأخرى؛ إذ المقصود للشرع هو حصولهم على حريتهم.(١)

﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ : وقد تكررت لأنها أهم صفات المتقين بعد الإيمان إذ منها تخرج الأعمال الصالحة ويكف بها المؤمن عن الأعمال السيئة إذ هى صلة العبد بربه وعبوديته وخضوعه ومظهر استسلامه لأوامره ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] علاوة على طمأنينته وسكونه وانشراح صدره «وجعلت قرة عينى في الصلاة» وقد ذكرنا معنى إقامتها في الآية الأولى.

﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ : والزكاة في الإسلام قرينة الصلاة إذ تلك رأس علاقة الإنسان بخالقه والزكاة رأس علاقة المسلم بأخيه، ودليل العدالة الاجتماعية

---

(1) ذكر أبو حيان سبب اختيار ترتيب الأصناف المذكورين في الآية على هذا النحو الحسن ثم أردف ملخصا: قال الراغب: اختير هذا الترتيب لما كان أولى من يتفقد الإنسان لمعروفه أقاربه فكان تقديمه أولى، ثم عقبه باليتامى والناس في المكاسب ثلاثة: معيل غير معول، ومعول معيل، ومعول غير معيل. واليتيم معول غير معيل فمواساته بعد الأقارب أولى، ثم ذكر المساكين الذين لا مال لهم حاضرا ولا غائبا، ثم ذكر ابن السبيل الذي يكون له مال غائب، ثم ذكرا السائلين الذين منهم صادق وكاذب، ثم ذكر الرقاب الذين لهم أرباب يعولونهم فكل واحد ممن أخر ذكره أقل فقراً ممن قدم ذكره عليه ا.هـ »، ثم قال: «وأجمع المسلمون على أنه إذا نزل بالمسلمين حاجة وضرورة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها. وقال مالك:«يجب على الناس فك أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم.» انظر أبا حيان، «البحر المحيط»، (٢/ ١٣٨).

ومصدر السلام الاجتماعى وينبوع تكافل الأمة وتماسكها وعنصر هام من عناصر تطورها ورقيها.ولقد أتى بها بعد ذكر إيتاء المال على حبه ليبين أن في المال حقا سوى الزكاة،[1] ولأن من آتى بتلك المكرمات من أنواع البر فلأن يأتى بالزكاة الواجبة أوكد. فجعل ذلك مقدمة لإيتاء الزكاة والحرص عليها إذ تلك شيم المتقين وبهم.

يقول أبو حيان، في «البحر المحيط» - يعقب على هذه الآيات من كلام الحق سبحانه - يبين مناسبة ترتيبها، وكيف ذكر إيتاء المال بعد الإيمان: «وثنى بإيتاء المال لأن ذلك من آثر الأشياء عند العرب ومن مناقبها الجلية ولهم في ذلك أخبار وأشعار كثيرة يفتخرون بذلك حتى هم يحسنون للقرابة وإن كانوا مسيئين لهم».[2]

﴿ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ ﴾: وحادى الإيمان لازال يحدونا بصفات المتقين، ويظهر كرم النفوس وسيرها على الجادة ويطهرها من النفاق

---

(1) الأصح من قول أهل العلم أن في المال حقا سوى الزكاة لحديث فاطمة بنت قيس الذي أخرجه ابن ماجه والترمذى والدارقطنى وإن كان إسناده ليس بذاك ولكن تؤيده الآية الكريمة التي معنا،وذهب الآخرون إلى حديث على ﷺ :«نسخت الزكاة كل صدقة» وكذلك هو ضعيف ويرجح القول الأول قوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾، وقوله ﷺ :«لا يؤمن بالله واليوم الأخر من بات شبعا وجاره طاو إلى جنبه»، وكذلك احتجوا بالإجماع أنه إذا انتهت الحاجة إلى الضرورة وجب على الناس أن يعطوا مقدار دفع الضرورة وذلك بعد الزكاة.، انظر للإمام محمد بن أحمد القرطبى «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٤١-٢٤٢)، للعلامة محمود الألوسى «روح المعانى» (٢/ ٧١-٧٢)، والإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير» (٣/ ١٧)، وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، وجار الله محمود الزمخشرى «الكشاف» (١/ ١٠٩-١١٠)، وفى المسألة بحث طويل، انظر للدكتور يوسف القرضاوى فى« فقه الزكاة»، (٢/ ٩٦٤-٩٩٢).

(2) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٢/ ١٣٨-١٣٩).

ومقبوح الأخلاق.«آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان».[١]

﴿ وَٱلۡمُوفُونَ ﴾ معطوف على ﴿ مَنۡ ءَامَنَ ﴾ أى البر المؤمنون والموفون وغير أسلوب الوصف فلم يقل: من أوفى للدلالة على مغايرة الوصفين فالأول متعلق بحقوق الله تعالى وأصول الدين. والثانى من حقوق العباد هذا ما ذهب إليه العلامة ابن عاشور.[٢]

لكن ذهب الفخر الرازى وتبعه جماعة إلى كون الآية عامة تشمل الوفاء بكل الحقوق: حقوق الحق سبحانه، وحقوق الخلق. يقول – رحمة الله تعالى: «واعلم أن هذا العهد يكون بين العبد وبين الله، أو بينه وبين رسول الله ﷺ أو بينه وبين سائر الناس،أما الذي بينه وبين الله فهو ما يلزمه بالنذور والإيمان.وأما الذي بينه وبين رسول الله ﷺ فهو الذي عاهد عليه الرسول ﷺ عند البيعة من القيام بالنصرة والمظاهرة والمجاهدة وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، وأما الذي بينه وبين سائر الناس فقد يكون ذلك من الواجبات مثل ما يلزمه في عقود المعاوضات من التسليم والتسلم وكذا الشرائط التي يلتزمها في السلم والرهن، وقد يكون ذلك من المندوبات مثل الوفاء بالمواعيد في بذل المال والإخلاص في المناصرة.

فقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ ﴾ يتناول كل هذه الأقسام فلا معنى لقصر الآية على بعض هذه الأقسام دون بعض وهذا الذي قلناه هو الذي عبر عنه المفسرون فقالوا: هم الذين إذا وعدوا أنجزوا،وإذا

---

(1) الحديث: «آية المنافق..» رواه البخارى (٢٣)، انظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (١/ ٨٩)، ومسلم (١٠٧)، انظر الإمام النووى، «شرح صحيح مسلم»، (١/ ٣٢٢).

(2) العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/ ١٣١)

حلفوا ونذروا وفوا، وإذا قالوا صدقوا،وإذا ائتمنوا أدوا».[١]

وكذلك هم أسرع الناس وفاءً بما عاهدوا لذلك قيده بالظرف ﴿ إِذَا ﴾ ليدل على عدم تأخرهم عن الوفاء طرفة عين، وإشارة أخرى في قوله: ﴿ إِذَا عَـٰهَدُواْ ﴾ أنهم ما يعاهدون إلا وقد تحققوا بأنهم يستطيعون الوفاء بالعهد فإن علموا ألا يفوا فلا يعاهدوا فكان خلقهم على كل حال من أعظم أخلاق المتقين.[٢]

﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ : وصلنا في صفات المتقين إلى جماعها والتي بغيرها لا يتحقق شئ ذا أثر مما سبق من الخلال العظيمة وتلك المكرمات الجليلة.

والصبر عرفه الغزالى في الإحياء[٣] بأنه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة. والصبر لغةً: حبس النفس عن الجزع[٤]، وزاد بعضهم: وحبس اللسان عن التشكى، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب.

أما أنواع الصبر: فهو على ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهى والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار من

---

(1) التفسير الكبير (٣/ ٢١-٢٢) وممن تبعه الألوسى في «روح المعانى»، حيث يقول: «والظاهر حمل العهد على ما يشمل حقوق الحق وحقوق الخلق وحذف المعمول يؤذن بذلك»، الألوسى «روح المعانى» (٢/ ١٧٧).

(2) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/ ١٣١).

(3) انظر الإمام أبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى، «إحياء علوم الدين»، مجلد٤، (١٢/ ٢١٧٣).

(4) انظر الزمخشرى، «أساس البلاغة» مختار الصحاح مادة «صبر»، لسان العرب «صبر»، (٢/ ٣). والإمام ابن القيم ابن محمد بن أبى بكر الزرعى الدمشقى (ت٧٥٩) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»:دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، (ص١٢).

المصائب والآلام حتى لا يتسخطها.[١]

أما حكم الصبر فإنه واجب على المؤمن أن يصبر على ما يصيبه، قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان: ١٧]، يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم»: «والصبر واجب على المؤمن حتم، وفى الصبر خير كثير، فإن الله ﷻ أمر به ووعد عليه جزيل الأجر، قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾».[٢]

والشكوى والتسخط والتبرم مما نزل بالمرء ينافى الصبر ولما كان الأصل في الكلام على الصبر منبن على الإختصار حيث المقصود علاقته بالتقوى فنشير فقط إلى مهم من آيات الصبر توضح أهميته، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤]، فجعل الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، وبشر الصابرين بثلاث، كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون، فقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٧٥]، ثم أمر رسوله ﷺ بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره إنما هو به - سبحانه - وبذلك تهون جميع المصائب، قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

اقتصرنا على هذه المواضع الثلاث من أكثر من نيفٍ وسبعين موضعاً

---

(1) انظر ابن القيم «الوابل الصيب من الكلم الطيب»، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٠هـ، (ص٣).

(2) ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٨٨).

للصبر[1] تبين قيمة التقوى عند الكلام على العلاقة بينهما.

أما علاقة التقوى بالصبر فإن دراسة مواضع التقوى توضح أن الصبر من صفات المتقين، ولكن نبادر فنفرد تلك المواضع هنا للنظر فيها، وها هى ذى:

١. قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٢. قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ إلى قوله: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥-١٧].

٣. قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

ذكرت الآية الأولى - وهى الآية التي معنا - أن من المتقين أولئك الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، يعنى أن من التقوى صبراً مخصوصاً وهو الصبر في البأساء، أى في الفقر والشدة، والضراء أى المرض والزمانة، وحين البأس أى حال جهاد العدو، وإذا كان الصبر لاشك أعم من ذلك كما عرفناه، فما وجه مدح المتقين بذلك؟ خاصة والسياق يذكر صفات أخرى كثيرة أهم من ذلك للمتقين، كالإيمان والصلاة، وهى تحتاج لصبر كذلك أعم مما ذكرنا.

والإجابة أن مدح القرآن الكريم لهم على صبرهم في هذه المواطن في الشدة والمرض وقتل النفس وفى ملاقاة العدو دليل على مدحهم فيما دونه، لأن الصابرين في مثل ذلك يسهل عليهم الصبر فيما هو أخف من المواطن والأعمال، فمثلهم لا يشق عليه الصبر في العبادات وبذل الأموال وسائر أعمال الطاعة،

---

(1) أبو حامد الغزالى «إحياء علوم الدين»، مجلد ٤، (١٢/ ٢١٧٣).

فضلاً عن الصبر في كافة مواطن المعصية، لذلك كانوا داخلين في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فكان اختيار القرآن الكريم للتعبير عن صبرهم بهذه الصفات دقيقاً وبديعاً، ليدل على أن صبرهم أكد في السراء والغنى والصحة وحال السلم والراحة. أى يدل بذلك على أنهم متحققون بالصبر في كافة أحوالهم، وكافة مواطن الصبر.

أما الآية الثانية في سورة آل عمران عند وصف المتقين قال: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وهى من صفات المتقين، ولكن جاء الوصف هنا على إطلاقه، يشمل كل أنواع الصبر، وأن الصبر صار صفة لازمة لهم، وهيئة راسخة فيهم، وأنهم قد بلغوا كذلك الدرجة العليا في تلك الصفة على ما ذهب إليه الزمخشرى[1]، وهذه الآية ستأتى في موضعها فيما بعد.

أما الموضع الأخير فقوله ﷻ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

وظاهر الآية الكريمة أن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر، واعلمه أن صبره إنما يكون بعون الله له ومدده إياه، والا لم يستطع، ونهاه عن الحزن على الكفار ولا الضيق من مكرهم، لأن ذلك من صفات المتقين، الذين فازوا بمعية الله لهم، والتي من مقتضاها حفظهم والذود عنهم، وتأييدهم ونصرهم.

يقول العلامة ابن عاشور في «التحرير والتنوير» في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾ [النحل: ١٢٨]:

تعليل للأمر بالاقتصاد على قدر الجرم في العقوبة، وللترغيب في الصبر على

---

(٢) انظر جار الله الزمخشرى « الكشاف»، (١/ ٢٧٨)

الأذى، والعفو عن المعتدين، ولتخصيص النبي ﷺ بالأمر بالصبر، والاستعانة على تحصيله بمعونة الله تعالى، ولصرف الكدر عن نفسه من جراء أعمال الذين لا يؤمنون به.[١]

وهذا التعليل السابق دليل على الصبر وما تبعه من صفات المتقين، لذا أتى بجانب التقوى بصلة فعلية ماضية ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ ﴾ للإشارة إلى لزوم حصولها وتقررها من قبل.[٢]

وقد رأينا آيات لعاقبة التقوى المحمودة معطوفة على الصبر، مرتبطة به، وما ذلك إلا لتبين قيمة الصبر من صفات المتقين، وأهميته في ذلك الموضع حتى نص عليه بخصوصه، وهاكم هذه المواضع – وقد جاءت في مواضعها:

١. قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗاۗ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٢. قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

٣. قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

٤. قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقد ذكرنا التفصيل لهذه المواضع في أماكنها.

فمعظم الفضائل ملاكها إذاً الصبر، إذ تنبعث عنه مكارم الأخلاق والمكارم

---

(1) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١٤/ ٣٣٨).

(2) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١٤/ ٣٣٨).

راجعة إلى قوة الإرادة وكبح جماح النفس في الاسترسال مع شهواتها بإرجاع القوتين الشهوية والغضبية عما لا يفيد كمالاً أو عما يورث نقصاناً فكان الصبر ملاك الفضائل في التحلم والتكرم والتعلم والتقوى والشجاعة والعدل والعمل في الأرض ونحوها إلا من ضروب الصبر. ومما يُؤثر عن علي ﷺ : «الشجاعة صبر ساعة».

وإذا رجعنا إلى الآية نستوضح هديها ونستجلى معانيها نرى عند أول تأمل:

نصيب الصابرين بالمخالفة للمعطوفات قبلها بما يوحى بمزيتها والاهتمام بها وذلك من عادة العرب في كلامها تخالف في مثل ذلك للاختصاص بالمدح أو الذم والسياق هو الذي يحدد. والمعنى: وأخص بالمدح الصابرين.(١)

فبينت الآية الكريمة أن المتقين في أعلى درجات الصبر وأنه ملازم لهم لذلك اختصهم بالثناء والمدح في نفس الوقت الذي بين فيه قيمة صبرهم وعلو مرتبتهم. فكان المدح والثناء داعياً أهل الإيمان لتفقد صبرهم في تلك المواطن وحضاً لهم على التخلق بتلك الأخلاق والتشبث بكل الصفات وبترويض النفس عليها رجاء تحصيل مكارم الأخلاق، فكانت الآية دقيقة في اختيار صفات بعيدة عن السياق لتدل على صفات السياق من باب الأولى.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ : صح لأولئك السابقين أن يشار إليهم بالصدق وأن يوصفوا به، والصدق يشمل الصدق في القول والصدق في الأحوال فالصدق في القول مقابل الكذب أى طابقت أقوالهم ما انطوت عليه قلوبهم من الإيمان والخير فإذا أخبروا بشيء كان صدقاً

(1) راجع جار الله محمود الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ١١٠). والإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٣/ ٢٢). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١/ ١٣٣)، (٢/ ١٣).

لا يتطرق إليه الكذب وهو مثل قوله ﷺ : «لا يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً» والصدق في الحال مقابل الرياء فعملوا أعمالهم لله تعالى لا رياء فيها ولا سمعة، قصدوا بها وجه الله تعالى وكانوا عند الظن بهم[١].

يقول أبو حيان: «وقد أخبر عن أولئك الأولى بالماضى ﴿ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ لتحقق اتصافهم به وأن ذلك وقع منهم وثبت واستقر. وأخبر عن أولئك الثانى بموصول صلته اسم الفاعل ﴿ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ ليدل ذلك على الثبوت وأن ذلك وصف لهم لا يتجدد بل صاشر سجية ووصفاً لازماً».[٢]

الموضع الثالث من صفات المتقين في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٥-١٧].

وإذا كان للشهوات المزينة من النساء والأولاد وأنواع الأموال والمتاع المختلف في هذه الحياة الدنيا بريقها الجذاب وسحرها الأخاذ، الذي يجعل الناس يلهثون في تحصيلها ويقتتلون على حوزها وجمعها، ولا يبالون بأى وسيلة يركبون في الازدياد منها، مع علم العقلاء بل قل علمهم هم بقلة هذا المتاع مهما جمعوا، وبقصر وقت الاستمتاع به مهما عاشوا فيها وعمروا، وأنهم سرعان ما يتركونها

---

(1) انظر أبا حيان محمد بن يوسف الأندلسى «البحر المحيط»، (٢/ ١٤١-١٤٢). وأما الحديث «ولا يزال الرجل يصدق.. » فقد رواه البخارى (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(2) انظر أبا حيان محمد بن يوسف الأندلسى «البحر المحيط»، (٢/ ١٤٢). والعلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (٢/ ٧٢).

إلى مثواهم الأخير بغير أهل ولا ولد أيضاً. إذا كان ذلك كذلك فإن للمتقين شأناً آخر، شأن من لم تلهه الدنيا عن الآخرة، شأن من لم يشغله الحطام الفانى عن تحصيل الزاد الباقى.

وقبل أن يذكر المولى صفات المتقين أولئك في هذه الآيات الجديدة، أمر النبى ﷺ أن يخبر الناس بصيغة الاستفهام عن جزاء المتقين، وما أُعد لهم أولاً بهذه الصيغة المشوقة للناس لهذا الجزاء العظيم من الجنات والأزواج المطهرة، وأعلى ذلك كله رضوان الله الذي لا يسخط عليهم بعده أبداً، حتى يحثهم على السؤال عن صفاتهم ليتخلقوا بها، وعن أحوالهم المرضية ليسيروا عليها، وأشار إلى شىء آخر أن ما ذكر من حسن جزائهم خير مما ذكر من قبل بلا شك من ملذات الدنيا، وهى كقوله سبحانه: ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ ﴾ [الأعلى: ١٧]، خير مما هو كائن في الدنيا من أنواع النعيم كما قال الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه: قال الله تعالى: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1]، حتى يعظموا هذا النعيم ويعملوا له ويستصغروا في جنبه كل نعيم فلا يلهيهم عنه.

وحينئذ يبحثون عن صفات أصحاب النعيم المقيم والسرور الدائم، فيقال لهم في هذه الآية الكريمة أول صفاتهم الإيمان.

ونلاحظ بمقارنة ما ورد عن الإيمان هنا بالآيتين من قبل، نرى في الأولى الإيمان بالغيب والإيمان بالآخرة، والثانية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله

---

(1) الحديث رواه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه (٣٢٤٤)، وانظر الحافظ بن حجر العسقلانى «فتح البارى»، مجلد٦ (ص٣١٨) وما بعدها، ورواه مسلم من حديث أبى هريرة أيضاً (٢٨٢٤)، وانظر شرح أبى زكريا النووى على مسلم، مجلد٩، (ص١٨٢) وما بعدها.

واليوم الآخر. والأولى في المضارع والثانية في الماضى ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ...﴾ أما هنا فقد جاء التعبير بقولهم: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا ...﴾ مطلقة هكذا عامة تشمل الإيمان بكل مواضيع الإيمان فكأنهم يقولون ربنا إننا آمنا بكل تأكيد ويقين، بكل ما أمرتنا أن نؤمن به.

ونرى دوام لهجهم بذلك من المضارع ﴿ يَقُولُونَ ﴾ كأنهم لا يفترون عن هذا القول، ولا يملون من ترديده مؤكدين ذلك بالنداء، وإنَّ المفيدة لتوكيد هذا الإيمان.

وهم يرفعون أيديهم بذلك ضارعين إلى مولاهم وربهم كأنهم يتلون الآية الأخرى:﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ونحس من ندائهم بهذا الإيمان المطلق الاستسلام التام منهم لربهم جل وعلا فيما أمرهم به، فكان مناسباً في هذه الآية الكريمة أن يدعوا ربهم بعدما استجابوا له أن يستجيب لهم، فكان دعاؤهم بالمغفرة والنجاة من النار أنسب الأدعية بعد الإيمان ﴿ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ لذلك يتضرعون إلى الله ﷻ وهم ينسبون ويضيفون أنفسهم إلى ربهم ﴿ رَبَّنَآ ﴾ تحنناً واستعطافاً أن يغفر لهم ويقيهم عذاب النار، إذ تلك رحمته وذلك فوزهم ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وننظر في الآيات:

فقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ مازال فيه معنى وهو أنه ليس قولاً باللسان وإنما إخبار عن واقع صحيح لهذا الإيمان يستدعى الأخذ بالأسباب الداعية لطلب المغفرة والنجاة من النار. يقول العلامة بن عاشور: « ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ عطف بيان للذين اتقوا. وصفهم بالتقوى وبالتوجه إلى الله تعالى بطلب المغفرة. ومعنى القول هنا الكلام المطابق للواقع في الخبر، والجارى على

فرط الرغبة في الدعاء في قولهم: ﴿ فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ... إلخ، وإنما يجرى كذلك إذا سعى الداعى في وسائل الإجابة وترقبها بأسبابها التي ترشد إليها التقوى،فلا يجازى هذا الجزاء من قال ذلك بفمه».[1]

ويؤيد هذا القول ما ذكر من صفاتهم بعد ذلك الصابرين والصادقين... إلى آخره. إذ تلك الصفات تؤكد تحققهم وليس تلفظهم فقط بهذا القول.

زادت صفات المتقين هنا عن الآيتين السابقتين صفات، الأولى: الدعاء بالمغفرة والوقاية من النار، والثانية: القنوت، والثالثة: الاستغفار بالأسحار. أما الأولى فهى أنهم دائمو الدعاء إلى الله تعالى أن يغفر لهم، وأن يقيهم عذاب النار، وتلك من أهم صفات المتقين التي تبين خوفهم من لقاء ربهم، الخوف المحمود، الذي يلازم الأخذ بالأسباب ليتحقق الدعاء، ويبين دعاؤهم كذلك عبوديتهم لربهم ودوام صلتهم به سبحانه مع لزوم الخشية والتضرع وطول الوقوف بباب الله تعالى لا تغرهم عبادتهم عن خوفهم من العاقبة والمصير، بحيث يظلون ناظرين إلى فضل الله ورحمته لا إلى أعمالهم وهو مصداق قول الرسول ﷺ : «واعلموا أنه لن ينجىَّ أحداً منكم عملُه»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل».[2]

ويحتمل كذلك هذا الدعاء المبارك بالنجاة من النار طلب الجنة من الله تعالى إذ هو تمام المراد وأغلى المقاصد وهو ما يدندن حوله المتقون في كل تصرفاتهم ظاهراً وباطناً داعين به في كل حين. يقول الإمام القرطبى: «ويحتمل أن يكون

---

(1) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٤/ ١٨٤-١٨٥).

(2) رواه البخارى في كتاب «الرقائق»، (٦٤٦٧). وانظر الحافظ بن حجر العسقلانى «فتح البارى»، مجلد١١، (ص٢٩٤). ومسلم (٢٨١٦) كتاب «المنافقين». وانظر النووى «شرح صحيح مسلم» (٩/ ١٧٤) وما بعدها.

دعاءً مؤكداً لطلب دخول الجنة، لتكون الرغبة في معنى النجاة والفوز من الطرفين، وهو كما قال بعض أصحاب النبى ﷺ عندما سأله ﷺ : كيف تقول في صلاتك؟ قال: أتشهد وأقول: اللهم إنى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما أنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال ﷺ : «حولها ندندن»[(١)]، رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

جاءت بعد ذلك الصفات الطيبات التي يزدان بها سلوك المتقين ﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾، وجاءت باسم الفاعل مع العطف لتدل على أن هذا المعنى صار عادتهم وخلقهم وأنهم لا ينفكون عنها وبذلك كان التعبير به أكمل من قوله الذين يصبرون ويصدقون... إلخ[(٢)]، لأن يصبرون تفيد التكرار فقط، أما اسم الفاعل كونها صارت عادة لهم وسجية فيهم.

أما العطف فللزمخشرى - وتبعه جمع - رأى في أن عطف الصفات الأصل فيها ترك الواو، لأنها لذات واحدة فإذا عطفت بالواو كانت كل صفة كأنها ذات مستقلة، ولا يعدل إليها البليغ إلا لنكتة، وهى كون المرء قد بلغ الكمال في هذه الصفة ومعنى ذلك أن المتقين قد بلغوا الكمال في هذه الصفات التي اتصفوا بها لهذا كان التعبير بهذه الصيغة أبلغ.[(٣)]

---

(1) الإمام محمد بن أحمد القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (٤/ ٣٨).

(2) انظر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ١٢٩).

(3) انظر جار الله محمود الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ١٣٨). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٣٣٩)، وزاد: أو لتغاير الموصوفين. والإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ١٣)، وقال: «كل من كان معه واحد من هذه الخصال دخل تحت المدح». وأبى البركات النسفى «مدارك التنزيل»، (١/ ١٦). واعترض أبو حيان قول الزمخشرى ومن تبعه بقوله: «ولا نعلم العطف في الصفة بالواو يدل على الكمال،

أما مقارنة الصبر بما ورد قبل ذلك فهنا ذكر الصابرين كما ذكرنا مطلقاً أى الصابرون على كل ما يكون الصبر فيه مدحاً وكمالاً وهو أشمل من قوله: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ ﴾ إذ الصابرون يشمل صبرهم على الطاعة وصبرهم عن المعصية كذلك.

وقد وردت هنا كلمة ﴿ ٱلۡمُنفِقِينَ ﴾، وفى الآية الأولى ﴿ يُنفِقُونَ ﴾، وفى الثانية ﴿ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾، فكانت ﴿ ٱلۡمُنفِقِينَ ﴾ هنا كذلك شاملة لكل وجوه الإنفاق من واجب ومستحب، فيدخل في ذلك إنفاق المرء على نفسه وأهله وأقاربه وصلة رحمه وفى الزكاة والجهاد وسائر وجوه البر[1]، مع كون الإنفاق صار سجية لهم.

وجدنا بذلك حسن التعبيرات القرآنية واتساقها في كل موضع لتحمل تلك المعانى المضيئة.

وأما الصفة الثانية في الآية ولم تذكر في الآيتين من قبل وزادتنا علماً بصفة جديدة من صفات المتقين فهى القنوت[2]، والقنوت كما يقول ابن عطية – رحمه

=

«البحر المحيط»، (٣/ ٥٨)، وإليه مال الطاهر بن عاشور حيث يقول: «ولا أحسب لهذا الكلام تسليما»، ونبه كذلك على أن الزمخشرى قد أحال على تفسير آية البقرة حيث ذكر ذلك هنا، ولم يذكر هنالك شيئاً. العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ١٨٥).

(1) الإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ١٢٨). ولما كان ذكرهم على سبيل المدح دل كذلك على أنهم منفقون للمال على حبه لا يتركون باباً يحب أن ينفق فيه لله إلا أنفقوا.

(2) يقول أبو حيان في «البحر المحيط»، (٣/ ٥٨): «وقالوا في القانتين: الحافظين للغيب. وقال الزجاج: «القائمين على العبادة. وقيل: القائمين بالحق. وقيل: الداعين المتضرعين. وقيل: الخاشعين. وقيل: المصلين».

الله: «الطاعة والدعاء وبكل ذلك يتصف المتقي».[١] وبالجملة فهى كما يقول الفخر الرازى: «عبارة عن الدوام على العبادة والمواظبة عليها».[٢] وكل ذلك حق في القنوت. فأهل التقوى لا شك وصلوا بتقواهم إلى ذلك وإلا لما سموا متقين فخضوعهم لربهم ودوام صلتهم به سجية وخصلة فيهم غير منفكين عنها ارتباطاً بربهم ومحبة له طالما أرواحهم في أجسادهم كما قال الحق: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩].

والصفة الثالثة المزيدة عما قبل من صفات المتقين هى الاستغفار بالأسحار و«الاستغفار» طلب المغفرة من المولى الكريم الغفار سبحانه. و«السحر» الثلث الأخير من الليل. فالمتقون دائمو الاستغفار يلحون على ربهم في أن يغفر لهم وليس ذلك حال كونهم متصفين بالمعاصى قائمين عليها، وإنما رغم اتصافهم بهذه الأوصاف الشريفة المتقدمة، لا يرون اتصافهم بهذه الصفات مما يسقط عنهم طلب المغفرة. ولا يسقط عنهم استغفارهم في كل وقت كما ورد عن الرسول ﷺ، وإنما خص السحر بالذكر وإن كانوا مستغفرين دائما، لأنه مظنة الإجابة حيث صح في الحديث عن النبى ﷺ أنه قال: «ينـزل ربنا ﷻ كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الليل الآخر فيقول: من يدعونى فأستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له؟ فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر».[٣]

---

(1) انظر أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية «المحرر الوجيز»، (١/ ٤١١).

(2) انظر الإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ١٢٨).

(3) انظر أبا حيان الأندلسى «البحر المحيط»، (٣/ ٥٧-٥٨). وابن عطية «المحرر الوجيز»، (١/ ٤١١). والحافظ إسماعيل بن كثير«تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٣٥٣). والعلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (٣/ ١٦٥-١٦٦). والحديث أخرجه البخارى (١١٤٥). وانظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، مجلد٣ (ص ٢٩). ورواه مسلم رقم (٧٥٨) (١٧٠) و (١٧٢) في «صلاة المسافرين».

أشرقت الآية الكريمة بحرص أهل التقوى على التعرض لهذا العطاء الربانى المتجدد في كل ليلة، وأنه ديدن كبار الصحابة والتابعين لهم بإحسان رضوان الله عليهم تأسياً بسيدنا محمد ﷺ في حضور هذه النفحات القدسية الغامرة بمعانى القرب والأنس بالله تعالى في هذه الساعات من ساعات الصفاء، والتي تكون العبادة فيها أشق إذ إغفاءة الفجر ألذ النوم، فإذا ما قام المرء لربه في هذا الوقت تكون النفس أصفى والبدن أقل تعباً والذهن أرق، وذلك دليل محبتهم لربهم وتقديمها على راحتهم، ولا جرم أنهم يقدمون بين يدى استغفارهم قيامهم الطويل لله تعالى يناجون ربهم ويتلون آياته ويتضرعون له، كما قال تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨ ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

قال الزمخشرى: «لأنهم كانوا يقدمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ﴾.[1]

إن وقوفهم بباب الله في السحر دليل من أكبر الأدلة على اهتمامهم بأمر آخرتهم، وعلى إدراكهم أثر الاستغفار في زيادة قوة الإيمان وكمال العبودية، حيث يهتم الكثير براحة بدنه وشهواته في هذا الوقت، وهم في واد والمتقون يستقون من معين الرحمة ونفحات القدس حيث العبادة أشد إخلاصاً ومكابدة[2]، وحيث ربهم أقرب إليهم، وجوده أغدق عليهم.

وهكذا شاركت الآية الثالثة في إضافة صفه للمتقين، ولنا عود إلى مثلها.

---

(1) انظر الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ١٧٨)، والآية من سورة فاطر: آية ١٠).

(2) وانظر الإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ١٢٩)، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ١٨٥)، ود. محمد أديب الصالح «التقوى»، (٢/ ٥٦٦).

وأما الموضع الرابع فهو قوله تعالى:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦]:

مازال القرآن الكريم يستحث الهمم للتخلق بصفات المتقين. فإذا كانت الآية السابقة قد بينت بعض صفات المتقين، مقدمة لهذه الصفات بأنواع النعيم الجسدى، والروحى الذي أعده عنده - سبحانه - لهم، مسوقاً في صيغة الاستفهام، ﴿ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم ﴾ المشوقة لهذا النعيم، ليكون دافعاً للناس، وملهماً لهم للاتصاف بهذه الأخلاق، فإنه سبحانه في هذه الآية الكريمة التي معنا أمر الناس بالمسارعة إلى هذا الثواب العظيم بصيغة الأمر التي لا تحتمل إلا الطاعة والاستجابة، بل والمسابقة والمبادرة إليه، التي تتضمن في نفس الوقت التحذير من مغبة مخالفة هذا الأمر، إذ في مخالفة أمر الله تعالى سخطه وعذابه. وعدم المسارعة إلى الاتصاف بصفات المتقين مخالفة لأمره، وبالتالى التعرض لعذابه، لأنه إعراض عن سبيل الجنة التي هى مستقر رحمته - جل وعلا.

وقد عرضت الآية السابقة ثواب الله تعالى متمثلاً في الجنات، والأزواج المطهرة، والرضوان الأكبر من الله تعالى، أما هذه الآية فذكرت أن الجزاء الذي يجب المسارعة إليه هو المغفرة والجنة، هكذا مجملاً، وبالنظر فيه، نجد أن المغفرة أحد أسباب دخول الجنة، وأن الجنة هى مستقر رحمة الله - جل وعلا، التي فيها يكرم عباده المتقين بكافة أنواع النعيم، بما في ذلك الأزواج المطهرة، الممثلة لغاية

السعادة الحسية، ورضوان الله الذي هو نهاية نعيم الروح وسعادتها.

فكان الإجمال في الآية الكريمة التي معنا متناسباً مع صيغة الأمر، وكان تفصيل النعيم في الآية السابقة متناسباً مع صيغة الاستفهام ﴿ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ ﴾ كذا، وكذا، وكذا مما أعد الله تعالى. مما يبين دقة التعبير القرآنى، وجماله، مع حسن التأثير الذي يحمل النفس على الاستجابة له، والتفاعل معه بسبب تنوع الأساليب، وتعدد المعانى.(١)

ونستكمل مقارنة الآيات:

---

(1) وتنكير مغفرة ووصلها بقوله: «من ربكم»، مع تأتى الإضافة بأن يقال مغفرة ربكم، لقصد الدلالة على التعظيم. أى المغفرة العظيمة المتناهية في العظم، فحسن حينئذ أن تطلب بالمسارعة. والمسارعة وإن كانت بصيغة المفاعلة من الجانبين، إلا أنها جاءت مجردة من ذلك، أى مطلوبة من جانب واحد، للمبالغة في طلب الإسراع، والتأكيد عليه. انظر الإمام فخر الدين الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ٤٥٣). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ٨٩)، وذلك ما يؤكد قيمة التقوى، وأهمية الاتصاف بصفات المتقين، والإسراع المؤكد لتحقيق ذلك، خاصة وأن الإسراع المطلوب مجاز في الحرص والمنافسة، الذي يجب أن يكون عادة المؤمنين، وشأن عباد الله المخلصين. ويمكن أن تكون السرعة هنا حقيقة، وهى سرعة الخروج إلى الجهاد عند النفير، كقوله ﷺ في الحديث: «وإذا استنفرتم فانفروا ».والمسارعة بعد ذلك على كل التقادير تتعلق بأسباب المغفرة، لا بذاتها. فعدنا مرة أخرى إلى المسارعة إلى التقوى بتعريفها الذي ذكرناه.

ملحوظة: وردت ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ بإثبات الواو وبحذفها في القراءات القرآنية، فتكون بإثبات الواو عطفاً على ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ ﴾، على تأويل المسارعة إلى المغفرة والجنة بالمسارعة إلى أسبابها، وهى طاعة الله ورسوله ... إلخ. وبحذف الواو، تنزل جملة ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ منـزلة البيان، أو بدل الاشتمال لجملة ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾، لأن طاعة الله ورسوله مسارعة إلى المغفرة والجنة فلذلك فصلت. انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ٨٨).

فنلاحظ هنا عدم التصريح بذكر الإيمان في صفات المتقين، كما جاء مصرحاً به في الآيات السابقة، والظاهر أنه قد استغنى عن ذكره بذكر المسارعة إلى الجنة والمغفرة، لأنه لا يعمل لذلك فضلاً عن المسارعة إليه إلا خيار أهل الإيمان، الذين امتلأت قلوبهم منه، إلى درجة المسارعة إلى الفوز بنعيم الله - جل وعلا - ورضائه.

ونلاحظ كذلك أن الصفات التي أجريت على المتقين تنويهاً وثناءً، ليست جماع التقوى، ولكن اجتماعها مؤذن بأن هؤلاء قد استكملوا ما به التقوى، لأن هذه الصفات من الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ ... إلى آخره، إذا تحققت في شخص فمن باب الأولى أن تكون قد سبقتها صفات التقوى الأصلية، والتي هى الأساس لمثل هذه الأخلاق، والباعث عليها.

ثم رأينا أن أول صفة من صفات المتقين هنا هى الإنفاق وقد تقدم غير مرة ولكن بتعبيرات مختلفة: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ، ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾، ﴿ وَٱلْمُنفِقِينَ ﴾ وقد ذكرناها في مواضعها، وفى نفس الوقت لم تكن مذكورة كهنا أول صفة.

وننظر أولاً في كونها جاءت بهذا التعبير، وهو قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾، أى إن هؤلاء المتقين مداومون على الإنفاق في حالتى الاتصاف بالفرح والحزن، والرخاء واليسر، وحال الضيق والعسر، فلا يخلون في كلتا الحالتين من الإنفاق بما قدروا عليه كثيراً كان أو قليلاً، أو أنهم ينفقون في جميع أحوالهم، لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة، لا تمنعهم حال فرح وسرور، ولا حال محنة وبلاء من المعروف، وسواء عليهم كان الواحد منهم في عرس، أو في حبس فإنه لا يدع الإحسان، وكأن الجمع بينهما أن السراء فيها ملهاة عن الفكر في شأن غيرهم، والضراء فيها ملهاة وقلة موجدة، منكباً فيها

على نفسه، ما يحتاجه البيت يحرم على المسجد[١]، فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدل على أن محبة نفع الغير بالمال، الذي هو عزيز على النفس، قد صارت لهم خلقاً لا يحجبهم عنه حاجب، ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة.[٢] وأما كون صفة الإنفاق قد ذكرت هنا أولاً، فقد ذكر الزمخشرى ومن تبعه سبب ذلك فقال: «وافتتح بذكر الإنفاق لأنه أشق على النفس، وأَدَّله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين».[٣] وفى هذا الكلام من الزمخشرى نظر، لأنه لو كان كذلك لافتتح بذكر الإنفاق في الآيات السابقة، لأن العلة في تقديمه المشقة على النفس، والدلالة على الإخلاص، ومواساة الفقراء، كل ذلك كان موجوداً لم يتخلف في أى وقت، والآيات الأولى كان الإيمان مذكوراً فيها وهو الأحق بالتقديم، لأنه الأصل في قبول هذه الأعمال. ولعله يقصد هذا السياق بالذات، ولكن السياق يعكر على هذا التعليل.

وهناك تعليل آخر لتقديم الإنفاق على بقية الأوصاف وهو سياق الآيات

---

(1) قال ابن الجوزى: «ومعنى الآية: أنهم رغبوا في معاملة الله، فلم يبطرهم الرخاء، فينسيهم، ولم تمنعهم الضراء فيبخلوا». جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى «زاد المسير في التفسير»، (١/ ٤٦٠).

(2) انظر جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢١٧). والطاهر بن عاشور«التحرير والتنوير»، (٤/ ٩١). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٤٥٦). وذكر كما سبقه الزمخشرى عن بعض السلف: أنه ربما تصدق ببصلة أو روى عن عائشة – رضى الله عنها – أنها تصدقت بحبة عنب.

(3) انظر جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢١٧). وأبا حيان محمد بن يوسف«البحر المحيط»، (٣/ ٣٤٧). وذكر بنصه لأبى البركات النسفى «مدارك التنـزيل وحقائق التأويل»، (١/ ١٤٢).

قبل هذه الآية ذلك أن الله – جل وعلا – نهى المؤمنين عن أكل الربا بقوله: ﴿ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾، ثم قوله – جل اسمه: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، فأمر – سبحانه – بالحذر من النار التي أعدت للكافرين، والمسارعة إلى الجنة التي أعدت للمتقين. وكان من صفات أهل النار أكل الربا الذي يدل على الحرص والشح، واستغلال حاجة الآخرين، وامتصاص دمهم بغير رحمة ولا شفقة، الأمر الذي يصل إلى تدميرهم وخراب بيوتهم. وكان من صفات المتقين الإنفاق في السراء والضراء، وكأنه نعى على آكلى الربا الذين ينهبون أموال الناس في الضراء، وهم – أى آكلى الربا – ميسورون يزدادون غنى على حسب هؤلاء المضرورين، أما المضرورون المتقون فهم ينفقون ويبذلون لله تعالى فهذه صورة جميلة، وتلك صورة في نهاية القبح.

كانت المقابلة إذن بين آكلى الربا، والمنفقين في السراء والضراء كما أشرنا السبب في تقديم الإنفاق، على عادة القرآن الكريم في المقابلة ليتمايز العمل، والتقدير والنتيجة.

لم أر لمن قرأت من المتقدمين الالتفات إلى هذا المعنى، حتى رأيت الأستاذ سيد قطب أشار إليه رحمه الله سريعاً في الكلام على الآية بقوله: «فبعد النهى عن أكل الربا والتحذير من النار التي أعدت للكافرين، والدعوة إلى التقوى رجاء الرحمة والفلاح، بعد هذا يجئ الأمر بالمسارعة إلى المغفرة، وإلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، ثم يكون الوصف الأول للمتقين هو: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ فهم الفريق المقابل للذين يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، ثم تجئ بقية الصفات والسمات».[1]

(1) انظر سيد قطب «ظلال القرآن»، (١/ ٤٧٤). وفى «التفسير الوسيط» بإشراف مجمع

وإذا كان القرآن الكريم قد أثنى على المتقين بإنفاقهم في كل الأحوال كما رأينا، فقد أثنى عليهم كذلك بأنهم ينفقون كل شئ يصلح للإنفاق، وهو ما يدل عليه حذف مفعول ينفقون. فلو قيل ماذا ينفقون في السراء والضراء؟ لكان الجواب ينفقون كل شئ، وما يدفع النفس إلى الإنفاق في كل حال وبكل شئ إلا دافع أقوى من شهوة المال، وربقة الحرص، وثقلة الشح، دافع التقوى. ذلك الشعور العميق الذي تشف به الروح، وتخلص، وتنطلق من القيود والأغلال.(١)

وكان الصحابة – رضى الله عنهم – المثل الأعلى، فقال: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]، قدوتهم في ذلك صاحب الخلق العظيم، سيدنا رسول الله ﷺ ، حيث وصفه بهذا كل من عرفه معرفة مشاهدة ومعاينة، أو معرفة شهرة ومطالعة. فقد قال جابر ﷺ : «ما سئل النبى ﷺ شيئاً فقال: لا»، بل كان يعطى أو يعد بالعطاء، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة، على عادة العرب في ضرب المثل بها.(٢)

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ : وهى صفة جديدة تضاف إلى صفاتهم، تمدنا بها الآيات، حيث لم تذكر من قبل، وهى سمة في غاية الأهمية، بها تظهر إرادة النفس وقوتها، في كبح جماح القوة الغضبية. إذ هى أصعب قوى النفس وأشدها، لأن أثرها يظهر في الانتقام والعدوان، أو يخفى ويكتم في الضغن والحقد، والثانى شر

=

البحوث الإسلامية، (٢/ ٦٥٨)، إشارة إلى ذلك بقوله: «ولأن النهى عن الربا يستدعى بديلاً عنه. ولذلك يقترن النهى عن الربا – في القرآن – بالحث عن الصدقة».

(1) وانظر كذلك العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٤١٦).

(2) وحذفنا ما كنا ذكرنا من آيات كرمه ﷺ وثوقاً بمعرفة القارئ.

من الأول وأسوأ.[١]

وكظم الغيظ: إمساكه حتى لا يظهر عليه، مأخوذ من كظم القربة إذا ملأها وأمسك فمها. قال المبرد: «فهو تمثيل للإمساك مع الامتلاء».[٢] أى أن المتقين أخذوا بحظ وافر من هذا الخلق الجميل، إذ قد امتلأت صدورهم غيظاً يريد التنفيس والانتقام مع قدرتهم على إنفاذه، ولكنهم أمسكوا وصبروا ووقفوا عند حدود الله تعالى، يرجون ما أعد الله – جل وعلا – من ثواب على ذلك. وإن دل ذلك على شيء دل على عزيمة راسخة في النفس، من تقوى الله تعالى، وخشية غضبه وخوف انتقامه، وهو من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة. ويروى عنه ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً». وعن عائشة – رضى الله عنها – أن خادماً لها غافلها فقالت: «لله در التقوى ما تركت لذى غيظ شفاء». وروى عنه ﷺ: «ما من جرعة يتجرعها العبد خير له وأعظم أجراً من جرعة غيظ في الله».[٣]

---

(1) ﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ ﴾ معطوف على الموصول الذين ينفقون، وعدل عن العطف بالفعل يكظمون ويعفون إلى اسم الفاعل مع أنه السياق للدلالة على الاستمرار وأن الكظم والعفو صارت حالة لا تفارقهم كأنها خلق وسجية متأصلة فيهم، وأما الإنفاق لما كان أمراً متجدداً عبر عنه بما يفيد الحدوث والتجدد والتكرار. بتصرف من: العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٤١٦).

(2) انظر الطاهر بن عاشور«التحرير والتنوير»، (٤/ ٩١).

(3) انظر ابن جرير الطبرى«جامع البيان»، (٤/ ٥٩). وقد ذكرت حديث «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه...الخ) مع ضعفه كما سنبين لاتفاق معظم المفسرين على إيراده وعلى تلك المعانى كما ذكر ابن جرير من قبل وكذا الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢١٧). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ٤٥٧). والبيضاوى «أنوار التنـزيل»، (٢/ ٩٣). والألوسي«روح المعانى»، (٤/ ٩٢). وأبو حيان الأندلسى «البحر المحيط»، (٣/ ٣٤٧). و صديق حسن خان «فتح البيان» (٢/ ١٣٢)، ولكن أورده برواية

﴿ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ ﴾ : وهى الصفة الثالثة في هذا السياق من صفات المتقين، وهى كسابقتها صفة جديدة تضاف إلى جملة صفات المتقين، لتزداد تلك الصورة للتقوى وضوحاً حتى تكتمل هذه اللوحة المضيئة لهم.

وكظم الغيظ وإن كان من أعظم الأخلاق - كما أشرنا - إلا أنه المرحلة الأولى[1] التي تكمل بالعفو، لذلك يستمر النص الكريم ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين، إنها العفو والسماحة والانطلاق.

﴿ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ ﴾ أى المتجاوزين عن عقوبة من استحقوا العقاب

=

الترمذى وأبى داود هكذا: «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه، دعاه الله على روؤس الخلائق حتى يخيره في أى الحور شاء». وغيرهم من المفسرين. أما الحديث السابق فقد ذكره ابن الجوزى في العلل المتناهية (٢/ ١٣٢)، والعقيلى في الضعفاء (٣/ ١٠٣)، وذكره في كنز العمال المتقى الهندى رقم (٥٨٢٢) وعزاه لابن أبى الدنيا في ذم الغضب من حديث أبى هريرة. وانظرها من البيضاوى (٢/ ٩٣).

(1) يقول الأستاذ سيد قطب: «وهى وحدها لا تكفى، فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضغن، فيتحول الغيظ إلى أحنة غائرة..» إلى آخر ما قال. وهذا كلام فيه نظر، مع أنه يبدو مقبولاً لأول وهلة، ولكن ليس كذلك مع التدقيق، لأنه مخالف لما قبله، بل ومخالف للمعنى الصحيح، لأن كظم الغيظ سيق مساق المدح، وعظم الشارع أمره، وأثنى على أصحابه، فكيف لا يكفى، وكيف يتحول إلى أحنة غائرة تخالف ما عليه المتقون من سلامة الظاهر والباطن، لذلك عبرت بهذا التعبير على أنه الأصح. وانظر الأستاذ/ سيد قطب، «فى ظلال القرآن»، (١/ ٤٧٥).

يقول العلامة الطاهر بن عاشور في كتابة «التحرير والتنوير»: « الصفة الثالثة: العفو عن الناس فيما أساءوا به إليهم، وهى تكملة لصفة كظم الغيظ بمنزلة الاحتراس، لأن كظم الغيظ قد تعترضه ندامة فيستعدى على من غاظه بالحق، فلما وصفوا بالعفو عمن أساء إليهم دل على أن كظم الغيظ وصف متأصل فيهم، مستمر معهم، وهو كلام قوى يؤكد ما ذهبنا إليه في كلام الأستاذ/ سيد قطب.

إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين، وقيل العفو عن الخدم والأرقاء إذا أساءوا وذلك لجهلهم وملازمتهم، والعموم في الآية أولى، ليكون ذلك مناسباً للتعبير أى العافين عن كل أحد ليبين سلامة صدورهم وسماحة أنفسهم.

هذا وقد نظر بعض أهل العلم – كما ذكر الإمام الفخر الرازى عن الإمام القفال – إلى سياق الآيات ليبين شيئاً من خصوصية العفو، حيث نزلت الآيات في ذكر موقعة أحد، وتضمنت كذلك الحديث عن الربا فقال ما حاصله: يحتمل أن يكون مدح العفو هنا بعدما ذم المشركين في أكلهم الربا أضعافاً مضاعفة، فنهى المؤمنين عن ذلك، بل ودلهم إلى العفو، كما جاء ذلك عقيب قصة الربا والتداين في سورة البقرة، حيث قال – جل وعلا: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

والمثل الثانى في غزوة أحد تتمة السياق لما مثل المشركون بحمزة بن عبد المطلب ﷺ ، فغضب رسول الله ﷺ وقال: «لأمثلن بهم»، فندب إلى العفو، فكان تركه التمثيل بهم عفواً منه – صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ : ختمت هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، وهو تذييل معناه أنهم بتحقق هذه الصفات فيهم يكونون محسنين، وهو دال على أنه بجمع هذه الصفات يجتمع كمال الإحسان ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.(١)

وقد ذهب جمع من أهل العلم إلى أن (ال) في (المحسنين) يمكن أن تكون للجنس، فتكون محبة الله تعالى لكل المحسنين والمذكورون منهم، أو أنها للعهد إشارة للمذكورين فقط مع توضيح معنى كلٍّ.

يقول العلامة محمود الألوسى في «روح المعانى»: (ال) في (المحسنين): إما

---

(1) وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٩١).

للجنس والمذكورون يدخلون فيه دخولاً أولياً، وإما للعهد، وعبر عنهم بالمحسنين على ما قيل إيذاناً بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان، الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى، وقد فسره النبى ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن تكن تراه فإنه يراك». ويمكن أن يقال: إن الإحسان هنا بمعنى الإنعام على الغير على وجه عار عن وجه القبح، وعبر عنهم بذلك للإشارة إلى أنهم في جميع تلك النعوت محسنون إلى الغير لا في الإنفاق فقط».[1]

وفى نهاية الآية، لا يسعنا إلا أن نقف مشدوهين لهذا التعبير القرآنى البليغ الفذ، إذ جمعت هذه الآية جميع وجوه الإحسان إلى الغير في الدنيا والآخرة.

يقول الفخر الرازى في «التفسير الكبير»:

«واعلم أن الإحسان إلى الغير إما أن يكون بإيصال النفع إليه، أو بدفع الضرر عنه، أما إيصال النفع إليه فهو المراد بقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾، ويدخل فيه إنفاق العلم، وذلك بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات.

وأما دفع الضرر عن الغير فهو إما في الدنيا، وهو أن لا يشتغل بمقابلة تلك الإساءة بإساءة أخرى، وهو المراد بكظم الغيظ، وإما في الآخرة وهو أن يبرئ ذمته في الدنيا عن التبعات والمطالبات في الآخرة، وهو المراد بقوله: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على جميع جهات الإحسان إلى الغير، ولما كانت هذه الأمور الثلاثة مشتركة في كونها إحساناً إلى الغير ذكر ثوابها فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، فإن محبة الله للعبد أعم

(1) انظر العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (٤/ ٩٣-٩٤).

درجات الثواب».[١]

ثم ننتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين، وهى في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ :

ذكرنا أن هذه الآية من صفات المتقين، وهذا ما ذهب إليه الإمام ابن جرير الطبرى، والفخر الرازى، وأطال في الاستدلال له الأستاذ/ سيد قطب، وهو قول الدكتور/ أديب الصالح[٢] وغيره. وسنذكر ترجيح هذا القول - إن شاء الله تعالى - مما يقتضينا الآن ذكر بقية أقوال أهل العلم في الآية، لتتضح قوة القول الأول، ولتكتمل وجوه التفسير للآية الكريمة. وهاهى أقوالهم:

ذهب الزمخشرى إلى أن قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ ...﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾، أى أن الجنة أعدت للمتقين وللذين إذا فعلوا..، أى أعدت للمتقين وللتائبين، وجوز أن يكون ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾.

ذكر ابن عطية أن هؤلاء - أى الذين إذا فعلوا.. - صنف دون الأول، ولكن الله تعالى ألحقهم بهم برحمة منه، وهو قول القرطبى بحروف ابن عطية ذاتها.[٣]

وأما العلامة أبو السعود فذكر في تفسيره «إرشاد العقل السليم» أن ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ مرفوع على الابتداء، فوافق وجهاً عند الزمخشرى، ثم أردف

---

(1) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ٤٥٨).

(2) ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (٤/ ٦٢). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ٤٥٩). والأستاذ/ سيد قطب «فى ظلال القرآن»، (١/ ٤٧٦). ود/ أديب الصالح «التقوى في هدى الكتاب والسنة»، (ص٥٦٩).

(3) عبد الحق بن عطية «المحرر الوجيز»، (١/ ٥١٠). وأبو عبد الله محمد القرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (٤/ ٢٠٩).

قائلاً: «وقيل: مجرور معطوف على ما قبله من صفات المتقين. وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ اعتراض بينهما يشير إلى ما بينهما من التفاوت، فإن درجة الأولين من التقوى أعلى من درجة هؤلاء وحظهم أوفى من حظهم». فيكون بذلك موافقاً لابن جرير ومن أخذ برأيه في كونهم متقين، ولكن خالفهم في أن درجتهم وحظهم من التقوى دون الأولين، ثم زاد وجهاً ثالثاً وهو: «أو معطوف على المتقين فيكون التفاوت أكثر وأظهر». فوافق بذلك قول الزمخشرى وإن زاد عليه كون البون بينهما - أى المتقين والتائبين - أوضح وأكثر أى كأنهما مشتركان في التقوى، وهو ما لم يذكره الزمخشرى. وقد ذكر الألوسى كلام أبى السعود بنصه كأنه نقله.[1]

وفسر الآية على أنها جملة مستأنفة وجهاً واحداً الإمام ابن كثير، والبيضاوى، وصديق حسن خان[2]، وغيرهم.

ونعود إلى الوجه الأول لنتبين أسباب ترجيحه، ونبدأ بكلام الفخر الرازى، حيث نص صراحة على وجه الترجيح، يقول – رحمه الله:

«الوجه الأول: أنه تعالى لما وصف الجنة بأنها معدة للمتقين، بين أن المتقين قسمان؛ أحدهما: الذين أقبلوا على الطاعات والعبادات، وهم الذين وصفهم الله بالإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس. وثانيهما: الذين إذا أذنبوا ثم تابوا وهم المراد بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً ﴾...،

---

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٤١٦). والألوسى «روح المعانى»، (٤/ ٩٥).

(٢) انظر الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٠٦). والبيضاوى «أنوار التنـزيل وأسرار التأويل»، (٢/ ٩٣). وصديق حسن خان «فتح البيان»، (٢/ ١٣٣).

وبين تعالى أن هذه الفرقة كالفرقة الأولى في كونها متقية، وذلك لأن المذنب إذا تاب عن الذنب صار حاله كحال من لم يذنب قط، في استحقاق المنـزلة والكرامة عند الله».[1]

وإن كان في هذه المسألة خلاف نذكره أولاً – وهى مسألة: هل يرجع العبد إلى الدرجة التي كان عليها قبل الذنب، أم لا؟ – لنتبين ترجيح الفخر الرازى من عدمه.

يقول الإمام ابن القيم في مدارج السالكين ما ملخصه: اختلف في ذلك، فقالت طائفة: يرجع إلى درجته، لأن التوبة تجُبُّ الذنب بالكلية، وتصيره كأن لم يكن، والمقتضى لدرجته ما معه من الإيمان والعمل الصالح، فعاد إليها بالتوبة.

قالوا: لأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح، فإذا كان ذنبه حطه عن درجته، فحسنته بالتوبة رقته إليها، وهذا كمن سقط في بئر، وله صاحب شفيق أدلى إليه حبلاً، تمسك به حتى رقى منه إلى موضعه. فهكذا التوبة والعمل الصالح مثل هذا القرين الصالح.

وقالت طائفة: لا يعود إلى درجته وحاله، لأنه كان في صعود، فبالذنب صار في نزول وهبوط، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعداً به للترقى، وكذلك الأول، يسير بقوة أعماله وإيمانه، وكلما ازداد قوته، وذلك الراجع قد ضعفت قوة سيره وإيمانه بالرجوع.

ويقول الإمام ابن القيم إنه سمع شيخ الإسلام ابن تيمية يحكى هذا الخلاف ثم قال: والصحيح أن من التائبين من لا يعود إلى درجته، ومنهم من يعود إليها، ومنهم من يعود إلى أعلى منها، وهذا بحسب حال التائب بعد توبته وجده وعزمه وحذره وتشميره، فإن كان ذلك أعظم عاد بعد الذنب خيراً مما كان، أو

---

(١) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/ ٤٥٩).

كان مثله عاد إلى مثل حاله، وإن كان دونه لم يعد لدرجته. يقول الإمام ابن القيم: «وهذا فصل النـزاع في هذه المسألة»[1]، والواقع من حال المرء مع الله تعالى يؤيد ما ذهبا إليه.

فإذا عدنا لكلام الفخر الرازى رأيناه اختار رجوع التائب بعد الذنب إلى درجته قبلها. وأوصاف هؤلاء التائبين، التي ذكرها الله تعالى في الآية، تقوى ما ذهب إليه، بل ولعل هذه الأوصاف تصل بهم أو ببعضهم إلى أعلى من درجته، خاصةً وأن الله تعالى ذكر ثوابهم، وعاقبتهم بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ فلم يكن ليصلوا إلى هذا الجزاء إلا وقد تحققوا بتوبة صادقة تجب ما قبلها، ويمكن أن تزيد عليه، يرجع بها التائب إلى درجته أو أعلى منها.

ونبين معنى التوبة، ومدى انطباقها على التائبين، والتي ساقتها الآية ليكون دليلاً وبرهاناً على صحة هذا القول وترجيحه من ناحية، ومن ناحية أخرى يكون تفسيراً للآية الكريمة، حيث أننا سنفسرها على كل حال، فكان إلحاقها بهذا الكلام أولى وألصق.

لقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالى في كتاب «إحياء علوم الدين» معنى التوبة، فقال: «وهى علم وحال وفعل، فالعلم هو معرفة ضرر الذنوب، وكونها حجاباً بين العبد وبين ربه، فإذا علم ذلك بيقين ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات ما يحبه من القرب من ربه ورضاه عنه، وذلك الألم يسمى ندماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب انبعث من القلب حالة، تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال والماضى والمستقبل، فتعلقه بالحال هو ترك الذنوب «الإقلاع»،

---

(1) أبو عبد الله محمد بن أبى بكر ابن قيم الجوزية «مدارج السالكين»، طبعة دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى الحلبى، (١/ ٣١٧-٣١٨).

وتعلقه بالمستقبل هو العزم على ترك الذنب في المستقبل «نفى الإصرار» وتعلقه بالماضى بتلافى ما فات».[١]

ويشرح العلامة ابن عاشور كلام الإحياء مع تطبيقه على الآية، فيقول ما ملخصه: وقد انتظم تلك الأركان الثلاثة لمعنى التوبة في كلام أبى حامد قوله تعالى في الآية: ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ﴾، وقوله: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ ﴾، وقوله: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ إشارة إلى انفعال القلب الذي هو التألم والندم، لأن ذكر اللسان لا يترتب عليه ذلك، وذكر الله هنا ذكر الوعد والوعيد، والأمر والنهى، أو ذكر جلاله الموجب للحياء منه.

وقوله: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ ﴾ إشارة إلى الفعل، وهو الإقلاع والعزم على عدم العود، لأن الإصرار هو الاستمرار على الذنب فنفيه، هو الإقلاع والعزم، إذ لا يستقيم الإقلاع مع البقاء على الذنب أو العزم على العود، فكان التعبير على قصره مفيداً للمعنى من كل جوانبه.

وأما قوله: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فهو إشارة إلى العلم المثير للانفعال النفسانى، وهو واقع قبل حصول الذنب، إذ لولاه لما كانت الفعلة معصية، وهذا العلم المثير للانفعال هو العلم بقبح الذنب في حق الله سبحانه وأن الإصرار ضار به، وأن الذنوب حجاب عن ربه ورضاه ومحبته.

وإن تأخر ذكر العلم في الآية، مع أنه متقدم على الذنب، لأن ترتيب الأركان في الآية بحسب شدة تعلقها بالمقصود، لأن ذكر الله يحصل بعد الذنب، فيبعث على التوبة والندم، وهذا هو المقصود المطلوب.[٢]

---

(١) حجة الإسلام الغزالى «إحياء علوم الدين»، مجلد٣، (١١/ ٢٠٧٠) وما بعدها.

(2) وانظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ٩٣-٩٤).

فكانت دلالة الآية على تحقق أركان التوبة الصادقة من أوضح الأدلة التي تبين أن هؤلاء قد تابوا توبةً نصوحاً، عادوا منها إلى سابق حالهم، لأن الآية الكريمة لم تذكر أى صنف من التائبين، ولكن من تحققت بتوبتهم مغفرة الله وجناته، وهى أعظم التوبة التي يكون أصحابها فعلاً وحالاً من المتقين.

وهذا الدليل والبرهان يدعم كلام الإمام الفخر الرازى، ومن ذهب مذهبه.

وثمة دليل آخر يرجح كونهم متقين، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾، وهؤلاء الذين غفر لهم وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، ومدح عملهم بمدح أجرهم وثوابهم، لاشك هم أولئك الذين يحبهم المولى – جل وعلا، فإذا كان جزاء التوابين المحبة من الله تعالى، وكان هو نفس جزاء المتقين في الآية: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ دل ذلك على أنهما سواء، وهذا الدليل يؤكد كذلك ما نحن بصدده من ترجيح القول الآخر.

ونعود إلى تفسير الآية:

ذكرنا أن العطف في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ على ﴿ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ويكون المعنى: ومن صفات المتقين أيضاً أنهم إذا فعلوا فاحشة – وهى الفعلة المتجاوزة للحد من الفساد – أو غيرها من الذنوب ظلموا بها أنفسهم، ذكروا الله سبحانه وتعالى ذكر القلب الذي يتفرع عنه طلب المغفرة، الذي معناه: ذكروا أمره ونهيه ووعده ووعيده وما أوصاهم به، لأن ذكر اللسان لا يترتب عليه ذلك، حيث استشعروا عظيم ما اقترفوا وشدة عذابه سبحانه، وموقفهم بين يديه، وسؤالهم عما قدموا وأخروا، مع تعظيمه – جل وعلا، وكمال جلاله الباعث على الخوف والخشية والحياء – دفعهم ذلك إلى استغفار ربهم، أى طلب المغفرة منه، وترك المؤاخذة على ما جنوا وركبوا من المعاصى، وقد حلوا عقدة الإصرار على تلك الذنوب والخطايا، وتوجهت نياتهم إلى الله ﷻ بالعزم على عدم العود إليها، عالمين بقبح جرائرهم ومضرتها عليهم في الدنيا والآخرة، مستيقنين بإطلاع الله ﷻ عليهم،

خائفين من حجبهم عن ربهم، وتعذيب الله ﷻ لهم.[1]

وجملة ﴿ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ معترضة بين قوله تعالى ﴿ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ﴾ وقوله ﴿ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ ﴾، والاستفهام مستعمل في النفى، بدليل الاستثناء منه.

ونختم الآية بمختصر لكلام الأستاذ/ سيد قطب، حيث يقول – رحمه الله تعالى – ما حاصله: يا لسماحة هذا الدين! إن الله – سبحانه وتعالى – لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم، حتى يطلعهم على جانب من سماحته – سبحانه وتعالى – معهم، ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا، إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين، ولكن سماحة هذا الدين تسلك في عدادهم: الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها، ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد من يهوون إليها من رحمة الله، إنما ترتفع بهم إلى مرتبة المتقين، على شرط واحد يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته: أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة، وألا يتبجحوا بالمعصية في غير تحرج ولا حياء، إلى آخر ما قال.[2]

---

(1) انظر العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»، (٤/ ٩٢). وانظر مختار الصحاح، مادة: ف ح ش.

وذكر المفسرون معنى الفاحشة، فقيل: الفاحشة المعصية الكبيرة، وظلم النفس الكبيرة مطلقاً، وقيل: الفاحشة المتعدية للغير، وظلم النفس الكبيرة القاصرة، وقيل: الفاحشة الزنا، وهذا تفسير لها بالمثال والذنب ما دون الزنا، وقيل غير ذلك. وانظر الزمخشرى «الكشاف»، (١/ ٢١٧). وصديق خان «فتح البيان»، (٢/ ١٣٣). وأبو حيان محمد بن يوسف «البحر المحيط»، (٣/ ٣٤٨). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ٩٢).

(٢) انظر سيد قطب «فى ظلال القرآن» (١/ ٤٧٦).

الموضع التالى من صفات المتقين هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩]:

قدمنا هذه الآيات عن ترتيبها في آيات المصحف الشريف المتعلقة بصفات المتقين، لأنها متعلقة بما سقنا من قبل من آيات، ولتكتمل الصورة بضم الصفات المتشابهة، حتى تستضئ صورة المتقين، وتتم معالم التقوى.

بدأت الآيات بجزاء التقوى، وما أعده الله - جل وعلا - للمتقين، كما بدأت بذلك الآيتان السابقتان، وإن كان التعبير عن الثواب يحمل مفردات جديدة، سنشرحها - بإذن الله تعالى - في موضعها من فصل جزاء التقوى وعاقبتها.

عللت الآيات استحقاق المتقين لموعود الله تعالى بالجنات والعيون، وما آتاهم فيها من نعيم بكونهم كانوا قبل دخولهم الجنة محسنين، ثم فسرت الآيات الكريمات إحسانهم بأنهم كانوا قليلى الهجوع «النوم» من الليل، وأنهم يستغفرون في الأسحار، وقد جعلوا من أموالهم حقاً يبذلونه للسائل و المحروم.

وقد بينت الآية السابقة الإحسان بأنه الإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ، والعفو عن الناس أى أن الآية أتت بجماع الإحسان المتعلق بالناس، وكذلك أفادت المعنى العام بأن يعبد المرء ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فإنه يراه، وهو الإحسان المطلوب في كافة الأعمال، على تفسير بعضهم كما أشرنا إليه.

وأما هذه الآيات فإن المعنى أنهم كانوا في الدنيا محسنين في الدرجة العليا من عباده الله، وهى الإحسان في الحديث السابق، ثم ذكر بعض طاعتهم وهو القيام بالليل، والاستغفار بالأسحار، والبذل للسائل والمحروم.

ولما لم تكن هذه الأعمال هى كافة الحسنات والطاعات التي يجب على المرء

أو يستحب أن يأتيها ليكون تقياً، كان قوله تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ ... إلى آخره، بدلاً من ﴿ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ بدل بعض من كل. وإنما عبر بالإحسان ليبين أنهم في هذه الصفات في الذروة والدرجة العليا، بمعنى أنهم تحققوا فيها بما يحب الله من الإحسان، وهو عبادته كأنه يراه.

أما تخصيص هذه الأعمال بالذات لتكون سبب إحسان المتقين، وكونهم يستحقون بفضل الله جزاءه، مع أنها ليست كل الحسنات ولا عظيمها فللآتى:

أولاً: أنها دليل على غيرها من الأعمال الصالحة، فهذا الذي يكابد الليل بمشقته قياماً لله تعالى، وهو مستحب، لاشك أنه محافظ على صلاة الفرائض وبقية أمور الدين من باب الأولى، إذ لا يَمْدَحُ اللهُ – جل وعلا – على المحافظة على النوافل والنصب فيها، مع تضييع ما هو أهم منها من الفرائض، بل هم في الدرجة العليا من إحسان الفرائض التي بينتها درجتهم العليا في إحسان النوافل، وكذلك إن كان يبذل للسائل والمحروم، بل ويجعل له حقاً في ماله تطوعاً – لأن هذه السورة مكية فلم تكن قد فرضت الزكاة بعد – فمن باب الأولى أن يسارع إلى الزكاة الواجبة.

وكذلك استغفارهم بالأسحار بعد طول صلاتهم بالليل يبين تقواهم، وحسن صلتهم بالله تعالى، لأنه إذا كان العبد بعد الصلاة والقيام وطول النصب لله تعالى ساجداً وقائماً يستغفر، ويديم الاستغفار في أفضل وقت الإجابة والتوبة، فكيف به، وماذا تراه يصنع بعد المعصية والذنب؟

ثانياً: أن هذه الخصال الثلاث كالمثال لأعظم إحسانهم يقول الطاهر بن عاشور:

«فإن ما ذكر من أعمالهم دال على شدة طاعتهم لله، ابتغاء مرضاته، ببذل أشد ما يبذل على النفس، وهو شيئان: أولهما: راحة النفس في وقت اشتداد حاجتها إلى الراحة، وهو الليل كله وخاصة آخره، إذ يكون فيه قائم بالليل، قد تعب

واشتد طلبه للراحة. وثانيهما: المال، الذي تشح به النفوس غالباً».[١]

ثالثاً: وهو معنى جميل وراء هذه الصفات، يؤكد قيمتها واستحقاق أهلها مرتبة التقوى العالية، وهو أن هذه الآيات تضمنت ما يطالب به الشرع من تكليفات تهدف إلى إصلاح النفس وإصلاح الناس، فإن صلاح النفس بتزكيتها ظاهراً وباطناً، وفى قيام الليل الإشارة إلى تزكية النفس باستجلاب رضا الله تعالى، وفى الاستغفار تزكية النفس بتنقيتها مما يغضب الله، وتهذيبها من ذلك، لتكون أقرب وأحب إلى مولاها، مع صعود الكلم الطيب من الاستغفار والتوبة الجالب لمرضاته.

وفى جعلهم الحق في أموالهم للسائل والمرحوم إصلاح للناس[٢]، فكان فيها قوام النفس والمجتمع، ألا يستحق أهلها وصفهم بالتقوى المحصلة لسعادة الدنيا والآخرة؟ وألا تستحق هذه الصفات المسارعة إلى الظفر بها ونيل مقصودها؟

ونعود إلى تفسير وتحليل تلك الآيات:

صورت الآيات الكريمات المتقين، وما أعد الله لهم من النعيم، وذلك في مقابلة المتخرصين الشاكين، وما أعد الله لهم من العذاب.

وكان مما ذكر الله – سبحانه وتعالى – من صفات المتقين أنهم ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾[٣]، وهى الأولى من حسناتهم وطاعاتهم، أنهم يكابدون

---

(1) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦/ ٣٤٨).

(2) المصدر السابق، (٢٦/ ٣٤٨).

(3) (الهجوع): النوم الخفيف وهو الغرار. ﴿ قَلِيلاً ﴾: منصوب على الظرف، لأنه وصف بالزمان بقوله: ﴿ مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ والعامل فيه يهجعون. و﴿ مَا ﴾: زائدة للتأكيد وشاعت زيادة ﴿ مَا ﴾ بعد اسم قليل وكثير، وقل، وطلال. والمعنى: يهجعون زمناً قليلاً من الليل.

العبادة في أوقات الراحة وسكون النفس، ولايستريحون من مشاق النهار إلا قليلاً. قال الألوسى في «روح المعانى المعانى»: قال عبد الله بن رواحة ﷺ : «هجعوا قليلاً ثم قاموا»، فهم الأيقاظ في جنح الليل والناس نيام، يأنسون بربهم في جوف الليل، فتتجافى جنوبهم عن المضاجع، ويخف بهم التطلع فلا يثقلهم المنام، يصفون له أقدامهم، يسبحونه ويدعونه ويتلون آياته، ويناجونه ويتملقونه، ويرفعون إليه حوائجهم، ويسألونه طلبتهم، ذلك نعيمهم، وتلك سعادتهم التي تخفف عليهم سهرهم وقيامهم، بل تلذذ لهم وقوفهم ونصبهم بين يدى محبوبهم - جل وعلا.

كل ذلك اقتداءً بأمر الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ ﴾ [المزمل: ٢-٤] وقد مدح عباده المستجيبين بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ۝٦٤ ﴾ [الفرقان: ٦٤]، وبقوله - جل ذكره: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

وكانت سيرته ﷺ مصداق ذلك، ففى الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ قال: قام النبى ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «أفلا أكون عبداً شكورا؟».(١)

وساعات قيامهم هى التي تكون قبل استغفارهم بالسحر - وهو الثلث

=

وذكر الألوسى وغيره أن ﴿ مَا ﴾ يمكن أن تكون نافية، نقلاً عن بعضهم وقد ذكر اثر ابن رواحه، انظر «روح المعانى»، (١٥/ ١٣)، والزمخشرى ينفى ذلك من قبل. انظر الزمخشرى «الكشاف» (٤/ ٢٨).

(1) رواه البخارى (٤٨٣٧)، وانظر: ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٨/ ٥٨٤). ورواه مسلم (٢٨٢٠)، انظر النووى «شرح صحيح مسلم، (٩/ ١٧٨).

الأخير من الليل – وهو ذلك الوقت المشهود الذي يقرب فيه المولى – سبحانه وتعالى – من عباده، وقد دل النبى ﷺ أهل الإيمان وأرشدهم للصلاة وذكر الله تعالى في تلك الساعة. روى الترمذى وصححه من حديث عمرو بن عَبَسَة ﷺ أنه سمع النبى ﷺ يقول: «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في هذه الساعة فكن».

وكان من أول ما أمرهم به الرسول ﷺ عنده وصوله المدينة قيام الليل. يروى الترمذى وغيره عن عبد الله بن سلام ﷺ يقول: «أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، أى أسرعوا إليه ومضوا كلهم، قال: فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه واستثبته، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، قال: فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

وقد حث النبى ﷺ المؤمنين على قيام الليل، ومن ذلك ما رواه أبو أمامة وسلمان الفارسى – رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم»، زاد حديث سلمان: «ومطردة للداء عن الجسد» رواه الترمذى والحاكم وصححه وغيرهما. ولذلك رأينا النبى ﷺ يرغب ترغيباً شديداً في قيام الليل، فيروى الطبرانى وأبو يعلى من قوله ﷺ: «لابد من صلاة بليل، ولو ركعة، ولو فواق حلب شاة».

يقول العلامة محمد السفارينى – رحمه الله – في كتابه شرح ثلاثيات مسند أحمد، «قال علماؤنا: كان قيام الليل واجباً على النبى ﷺ ولم ينسخ. قالوا: ولا ينبغى أن يقوم الإنسان كل الليل إلا ليلة عيد وقدر ونحوهما. قالوا: ويكره مداومة قيامه كله، ويستحب أن يكون له تطوعات يداوم عليها، وإذا فاتت يقضيها»، ثم أردف قائلاً: «وقد استحب الإمام أحمد ﷺ أن يكون له ركعات

معلومة من الليل والنهار، فإذا نشط طولها وإذا لم ينشط خففها».[1]

وللعلامة أبى الحسن الندوى كلام حسن في قيام الليل، وحرص الأئمة عليه، في كتابه «تأملات في القرآن الكريم»[2] يحسن نقل شئ منه، يقول - حفظه الله: «إن أقوى وسيلة لتغذية الروح وشحن (بطارية) القلب: قيام الليل، الذي أكثر القرآن من الحث عليه، والترغيب فيه، ومدح أصحابه، حتى كأنه ملحق بالفرائض وتابع لها، ولذلك سمى نافلة.»، إلى أن يقول: «ويعرف المتتبع لأخبار الصحابة ﷺ، والذي يتتبع دواوين الحديث وكتب السيرة والتاريخ، أن قيام الليل كان فاشياً منتشراً فيهم، حتى أصبح شعاراً لهم، وقد وصفوا أمام «هرقل» وقادته بأنهم بالليل رهبان وبالنهار فرسان».

وهكذا كان أئمة المسلمين وقادتهم، وزعماء الإصلاح والتجديد، ورجال التعليم والتربية، ومن نفع الله بنفوسهم وأنفاسهم، وكتب لمآثرهم وآثارهم الانتشار الواسع والبقاء الطويل، والقبول العظيم، والذكر الجميل، من أصحاب العبادة، والسهر في الليالى، والقيام بالأسحار، وأصحاب الصلة الروحية بالله تعالى، وهكذا كان وسيظل، فلا تنشأ يقظة عن غفلة، ولا نهضة عن جمود وخمود، ولا حياة من موت ولا انتباه وانتعاش من قساوة وفتور».[3]

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾: بعد أن وصف المولى - جل وعلا - المتقين بقلة الهجوع وكثرة التهجد، مادحاً لهم بذلك، وصفهم بوصف جديد من

---

(1) انظر لما سبق العلامة الشيخ / محمد السفارينى الحنبلى «نفثات صدر المكمد وقرة عين المسعد لشرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد»، (١/٦٠٨)، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ، المكتب الإسلامى، بيروت.

(٢) انظر أبا الحسن الندوى «تأملات من القرآن الكريم»، دار دمشق، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، (ص٥٧) وما بعدها.

(٣) انظر الندوى «تأملات في القرآن الكريم»، (ص٥٧).

أوصاف المتقين، وهو أنهم إذا آذن الليل بالانصرام، وأصاب التعب قائم الليل، وكان النوم أحب إليه مما يعدل به، جلسوا يستغفرون الله تعالى في الأسحار، كأنهم أسلفوا الجرائم في ليلهم، ولم يتفرغوا فيه للعبادة. وذلك يشير إلى مزيد خشيتهم، وعدم اغترارهم بعبادتهم[1]، وهذه سيرة الكريم، يأتى بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر عن التقصير، واللئيم يأتى بالقليل ويستكثره ويمن به.

والأسحار: جمع سحر، وهو آخر الليل، وخص هذا الوقت بالاستغفار لكونه يكثر فيه أن يغلب النوم على الإنسان، فصلاتهم واستغفارهم فيه أعجب منه في أجزاء الليل الأخرى. وجمع الأسحار باعتبار تكرار قيامهم في السحر ودوام الاستغفار فيه. وفى بناء الفعل «يستغفرون» على الضمير «هم»[2] إشعار

---

(1) جار الله الزمخشرى «الكشاف»، (٤/ ٢٨). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٤/ ٤٩٨). والعلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (١٥/ ١٣-١٤). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/ ٣٥٠-٣٥١). وكذلك ذكر البيضاوى وأبو السعود وغيرهم.

(2) يقول الفخر الرازى: «وقوله تعالى ﴿ هُمْ ﴾ غير خال عن فائدة:

قال الزمخشرى: فائدته انحصار المستغفرين، أى لكمالهم في الاستغفار، كأن غيرهم ليس بمستغفر، فهم المستغفرون لا غير، يقال: فلان هم العالم، لكماله كأنه تفرد به وهو جيد.

ولكن فيه فائدة أخرى، وهى أن الله تعالى لما عطف ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ على قوله تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ فلو لم يؤكد معنى إثبات بكلمة ﴿ هُمْ ﴾ يصلح أن يكون معناه: وبالأسحار قليلاً ما يستغفرون، تقول: فلان قليلاً ما يؤذى وإلى الناس يحسن، قد يفهم أنه قليل الإيذاء قليل الإحسان، فإذا قلت: قليلاً ما يؤذى وهو يحسن، زال ذلك الفهم، وظهر فيه معنى قوله: قليل الإيذاء كثير الإحسان».

وقد راجعت تفسير الزمخشرى للآية مرة أخرى، لأنى أشرت إليه قبلاً، وكذلك مظان وجود هذا الكلام، فلم أجده بحروفه التي ذكرها الفخر الرازى، فلعله قالها فهماً من كلام الزمخشرى، وبكن التصدير بـ «قال الزمخشرى» يبعد هذا الاحتمال، فلعله قالها في مكان

بالاعتناء بهم، أى أنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار، كأنهم المختصون به، لاستدامتهم له وإطنابهم فيه وكان يمكن أن يقال: وبالأسحار يستغفرون.

والاستغفار على حقيقته المشهورة هو طلب المغفرة من الله تعالى، وبذلك قال الحسن البصرى. أخرج الإمام ابن جرير في «جامع البيان» عن الحسن قال: «صلوا، فلما كان السحر استغفروا». وقيل: المراد طلبهم المغفرة بالصلاة، وعليه ما أخرج ابن المنذر وجماعة عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه قال: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يصلون.(١)

وللأسحار خصيصة أخرى لدى المتقين تحيا بها قلوبهم، وتقوى بها على تحمل النصب أبدانهم أفئدتهم، ويزيد فيها نعيم روحهم وسرور نفوسهم، ذلك قول النبى ﷺ: «إن الله يتنـزل في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا، فيقول هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر.»

فهذا النـزول الإلهى - الذي لا يشبهه شئ - جعل تلك القلوب والأبدان تتحمل في سبيله كل مشقة وتعب، وتستهين بكل بذل وجهد، وتعلم جزاء ذلك وحسن عاقبته، فقل ليلة هجعوها إلى الصباح لم يأخذوا منها نصيباً.

وإذا كانت تلك الصفة الجليلة من صفات المتقين - وهى أنهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون - صفة جديدة أضفناها بذلك إلى ما سبق من صفات المتقين، لتزداد صورتهم وضوحاً، فإن استغفارهم بالأسحار قد ورد شبيهه

=

آخر، وإن كان ذكره في هذا المكان لا يوهم بغير هذه الآية.

(1) ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (٢٧/ ١٢١-١٢٣). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، (١٥/ ١٤). وابن عطية «المحرر الوجيز»، (٥/ ١٧٥). وجار الله الزمخشرى «الكشاف»، (٤/ ٢٨).

من قبل في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾، وبالمقارنة بينهما نجد أن القرآن عبر هنا بصيغة اسم الفاعل للتناسب بينها، وبين ما قبلها من الصفات: الصابرين والصادقين والقانتين والمستغفرين بالأسحار. وتبين الآية الكريمة أيضاً بهذا التعبير أن الاستغفار صار لهم عادة، وأنهم قد بلغوا فيه الغاية القصوى، وأن هناك إما أن يسبقه صلاة، أو يعبر به عن صلاة، كما ذكرنا أقوالاً في ذلك لأهل العلم. وأما الآية التي معنا فقد عبر فيها بالمضارع، ليبين تكرر ذلك منهم، مع اختصاصهم بذلك، وقدم الأسحار هنا للاهتمام بهذا الوقت، وفائدة الذكر فيه وظهور المقربين من النائمين، وتمايز درجات المحبين المتقين، خاصة وقد سبقه مكابدة للصلاة، ممدوحين بها، ومثنى عليهم بالمثابرة عليها.

﴿ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾: فإذا كان ما سبق هو حالهم مع الله – جل وعلا – فإن هذه الآية الكريمة تبين حالهم مع الناس، ومع المال، فإذا بهم قد تخلصوا من أوضار الشح، وثقل الحرص والبخل، فقد حددوا في أموالهم –من غير أن يفرض عليهم– مقداراً معلوماً لا ينزلون عنه ولا يساومون عليه، أخرجوه طيبة به نفوسهم، من غير قسر ولا إكراه، وما ذلك إلا لشفافية نفوسهم، ورهافة إحساسهم، ونبل مشاعرهم، إذ كيف يكون من إخوانهم السائل المحتاج والمحروم المستحى المتعفف، وهم لا يبالون بذلك، ولا تتحرك له شعورهم، بل سارعوا لإعطاء السائل المتعرض وبحثوا عن الحييِّ المتعفف، الذي لا يفطن إليه، فيتصدق عليه. والحق أنهم ازدادوا على ذلك، فقد جعلوه حقاً لإخوانهم في أموالهم، وليس مجرد صدقة وعطية، إن شاءوا منحوها، وإن شاءوا منعوها، هؤلاء هم المتقون حقاً.

والسائل: هو الفقير المظهر فقره، فهو يسأل الناس، والمحروم[1]: الفقير

(1) يقول ابن عطية: وهو يشير إلى هذا المعنى: «واختلف الناس في ﴿ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ اختلافاً

الذي لا يعطى الصدقة، لظن الناس أنه غير محتاج من تعففه عن إظهار الفقر، وهو الصنف الذي قال الله تعالى في شأنهم: ﴿تَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. ولما كان المحروم من سبق، كان إطلاق الاسم عليه ليس حقيقة، فهو لم يسأل وحرم، وإنما لما كان مآله إلى ما يؤول إليه المحروم أطلق عليه اللفظ. وفى اللفظ ترقيق لقلوب المؤمنين، وحث على البحث عنه ليضعوا صدقاتهم حيث يحب الله تعالى.

وإذا كانت صفة الإنفاق من صفات المتقين قد أخذت تعبيرات متنوعة من قبل، لتفيد معان جمة وجميلة، فإن التعبير عنها هنا - بمقارنته بما سلف - يزيدنا معانى أخر من الحسن بمكان، رأينا قبل ذلك قوله - جل وعلا: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾، و﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ في سورة البقرة، و ﴿ وَٱلْمُنفِقِينَ ﴾، و﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ في آل عمران، وقد أشرنا إلى معانيها وقمنا بالمقارنة بينها من قبل. أما هذا التعبير الدقيق فيرشدنا – علاوة على ما سبق – إلى أنهم لا ينفقون أى شئ، بل أنهم قد جعلوا من أموالهم حظاً وافراً معلوماً للسائل والمحروم، وهذا المعلوم قد ألزموا به أنفسهم تكافلاً مع إخوانهم ورحمة بهم وشفقة عليهم، بحيث لا يفرطون فيه تحت أى ظرف، إذ هم ممدوحون عليه، ولا يمدح المرء على القيام بالواجب، ومن ثم فهو ليس زكاة، على عكس ما ذهب إليه البعض. والتعبير بـ ﴿ ٱلسَّآئِلَ ﴾ وإن كان قد مر مثله، فإن التعبير بـ ﴿ ٱلْمَحْرُومِ ﴾ لم يسبق ذكره، وهو إشارة إلى أن المتقين مهتمون بالبحث عن أحوال المسلمين، والمشاركة في إصلاحها، إذ من

=

هو عندى، تخليط من المتأخرين إذ المعنى واحد، وإنما عبر علماء السلف في ذلك بعبارات على جهة المثالات، فجعلها المتأخرون أقوالاً». انظر ابن عطية «المحرر الوجيز»، (٥/ ١٧٥).

لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، وهم رأسهم والمقدمون فيهم، فكانت الصفة جديدة في التعبير عنها، جديدة في مدلولاتها ومعانيها.

وفى إضافة المال إليهم في الآية ﴿ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ مع أن القرآن الكريم أضافه إلى الله تعالى في غيرها من المواضع، كقوله: ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٣]، ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ﴾ [النور: ٣٣]، ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧]، إشارة إلى كرمهم وجودهم، إذ لما كان الحرص موجوداً، وكان الحث على الإنفاق مطلوباً، أمرهم أن ينفقوا من مال الله الذي ليس بهالهم على الحقيقة، حملاً على البذل والعطاء، لأنه ليس مالكم فتمسكوه،أما وقد أنفقوا من تلقاء أنفسهم بغير أمر ولا فرض، لم يكن للحث موضع، وكذلك فيه إشارة عظيمة المبالغة بمدحهم، لأنه لو قال: في أموال الله، لم يكن هناك مدح و لا ثناء، فلما أضاف الأموال إليهم كأنه يشير إلى حب المال وتملكه، والمحافظة عليه ونمائه وزيادته، الذي يمنع المرء من بذله وإخراجه لغيره، أى جعلوا في أموالهم التي يحبونها ويمتلكونها، وينبغى أن يكون همهم المحافظة عليها وزيادتها بعدم التفريط فيها لغيرهم، جعلوا منها حظاً وافراً، وحقاً معلوماً لغيرهم.

ونلخص ما ذكره الدكتور/ محمد أديب الصالح في معنى الآيات حيث يقول: إنها صفات تدل بسناها المشرق على أن هؤلاء البررة لا تنسيهم شدة حب المال أن ينفقوا في سبيل الله، ويدل على أن هؤلاء البررة الأصفياء ليسوا في عزلة عن المجتمع، ولكنهم فيه ومنه يخالطون الناس ويبعثون كوامن الخير في أنفسهم وفى الآخرين، مع التعاون على البر والتقوى، ومعاونة من هو بحاجة إلى المعاونة، إسهاماً في إحكام البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المسلم.[1]

(1) د. محمد الأديب الصالح «التقوى في هدى الكتاب والسنة»، (ص ٥٤٩).

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل: ١٧-٢١]:

وما زلنا في تحرير بقية صفات المتقين، حتى صادفتنا هذه الآيات الكريمات، لتعطينا توضيحاً لما سبق، ولتزداد صورة المتقين جلاءً وزهواً.

هذه الآيات الكريمات أشرقت علينا بصورة الأتقى، لا كما كانت تبين الآيات السابقة أوصاف المتقين فقط، مما يدعونا للنظر في سبب هذا التكريم البالغ لهؤلاء الأتقياء البررة، مع مقارنة ذلك بما سبق في الآيات، لتبرز لنا درجة التقوى العليا، ولنرى تلك القمم السامقة التي سمت إلى هذه المنازل العلا من منازلها، وليكون نبراساً يهتدى به السائرون من المصلحين، والهداة الداعين، والمرشدين المربين، إذ في مثل ذلك فليتنافس المتنافسون، وليتسابق المتسابقون، كيف لا، وعاقبته رضا الله الأكبر؟

ونلاحظ:

أولاً: أن الآيات قد أتت بصفة من صفات المتقين التي ذكرت من قبل، وهى صفة البذل والإنفاق، وإن كانت التعبيرات عنها قد تنوعت لتعطى معانى جديدة ومختلفة، وتوحى بإيحاءات أكثر جدة، كلما توغلنا مع الآيات كما أشرنا، إلا أنها لم تعط لنا كون المتصف بذلك هو الأتقى. وهنا لم تعبر الآيات بتلك التعبيرات الجميلة السابقة، ومع ذلك كان صاحبها هو الأتقى. والسر - والله أعلم - وراء ذلك أن التقوى درجات، وأن أعلاها هى درجة الأتقى، وصفة الأتقى أنه يؤتى ماله يتزكى، فكانت الفارق بين التقى والأتقى هو التزكى، أى أن يكون بفعله زاكياً عند ربه، فالتقى يؤتى ماله على الإخلاص والصدق، نعم يريد ما عند الله، والأتقى يؤتى ماله كذلك ولكنه يريد ربه ذاته، أن يكون زاكياً عنده، ولو كان يؤتى ماله فقط، لكان كمن سبق من المتقين بلا مزيد فضل، فكان

قوله ﴿ يَتَزَكَّىٰ ﴾ الحد الفاصل بين الوصفين والعاقبتين. لذلك كانت الجملة في محل حال من ضمير ﴿ يُؤْتِي ﴾ أى يؤتيه يتزكى، أى يريد به أن يكون زاكياً عند الله، لا يريد غير ذلك، ولم أر من أشار إلى شبيه هذا المعنى إلا العلامة أبا السعود، حيث ذكر درجة من درجات التقوى سماها التقوى عما سوى الله تعالى، ومن ثم كان قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، يعنى المتقى كريم، ولكن الأتقى أكرم، ولا شك أنهما مشتركان في التقوى وصفاتها، ولكن الأتقى يزيد كرماً عند الله بشيء آخر ظنى هو ما ذكرت.(١)

ثانياً: وهى ملحوظة غريبة، أن الله تعالى لما ذكر جزاء المتقين في الآيات السالفة(٢) ذكر الجنات، وما أعد فيها لهم. وأما في هذه الآيات التي هى في ذكر الأتقى الأعلى منزلة ودرجة، فقد ذكر أول ما ذكر من أن جزاءهم الإبعاد عن النار التي تلظى، حيث أن معنى قوله ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ أى سيبعد عنها(٣)، فكيف تكون أول عاقبة الأتقى الأكرم تجنب النار، وعاقبة التقى دخول الجنة وبقية النعيم مع أنه الأدنى منـزلة؟

والجواب بتوفيق الله تعالى أن مفهوم ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾ أن التقى لا يجنبها – أى النار – لأنه لما كانت التقوى درجات، دخل في التقوى من اتقى الشرك – مثلاً – ولم يتق المعاصى، فيجوز أن يدخلها ويعذب بها، ولكن لا يصلاها صلاء الأشقى، لأن الأشقى من كذب الحق وتولى معرضاً عن الطاعة، وهو الكافر. والأتقى – كما ذكرنا – سيبعد عنها فلا يدخلها أصلاً، فاتضح

---

(١) انظر العلامة أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/ ٣٣).

(2) كقوله تعالى ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ ...﴾ وقوله جل وعلا: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

(3) وإن كان قد ذكر في نهاية الآيات تتمة الجزاء، بقوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾.

بذلك علو درجة الأتقى. وظهرت دقة التعبير عن جزاء الأتقى في هذه الآية، في مقابلة جزاء المتقين في الآيات السابقة، خاصة وأن جزاء الأتقى – لا شك – الفردوس الأعلى، مع تجنب النار. وهذا يبين لنا قيمة الإخلاص، ولزوم أن يحرص المرء في أقواله وأفعاله، في ظاهر وباطنه عليه، وإلا تعرض للتمحيص في نار جهنم إذا شاب أقواله أو تصرفاته شئ لغير الله تعالى. كما ذكر النبى ﷺ في الحديث السابق.

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ :

وهى الصفة التالية لهذا البار الأتقى، أنه يعطى ويبذل من ماله ابتغاء وجه ربه المتعالى – سبحانه، لا مكافأة على صنيع ولا رداً لجميل، ولا مقابلة لنعمة، بل لا يكون هو الأتقى حتى يكون كذلك، لا ينفق ويجود لنعمة يجازى بها، لا لأى نعمة كانت صغيرة أو كبيرة، وهو ما تقيده ﴿ مِن ﴾ المزيدة لتأكيد هذا النفى، ليدل على كل عمله يقصد به وجه الله تعالى، لا يشرك معه أحداً. ومن كان كذلك، دل سلوكه على شدة الخشية لربه، وكمال المراقبة له، بحيث لا يفرط منه عمل – وإن دق – لغير وجه الله يكون به غير مخلص لربه.

وتشير الآية إلى أن الأتقى دائماً هو المعطاء المتفضل، المكثر من الإنعام والإكرام المبتدئ بذلك، وأن يده هى اليد العليا دائماً، كما يحب الله تعالى، علاوة على أن ذلك كله ابتغاء وجهه – سبحانه، لا يريد من أحد جزاء ولا شكوراً، إنما ينتظر ذلك من ربه الشكور أكرم الأكرمين – جل وعلا.

وكان أعظم مثال لتطبيق الآية بعد الرسول ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ حتى ادعى بعضهم كالفخر الرازى[1] الإجماع على أنها نزلت فيه ﷺ، وإن كانت

(1) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٦/ ٤٥٩)، أما سبب النزول فقد ذكر كغيره من المفسرين أن بلالاً ﷺ كان يعذب في الله على رمضاء مكة، يعذبه المشركون ليرجع عن

الآيات عامة في كل من اتصف بذلك، ولكنه ﷺ يعطينا الصورة الصادقة، التي يتطلع إليها الأتقياء البررة. يقول الإمام ابن كثير: «ولاشك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، ولكونه مقدم الأمة وسابقها في جميع الأوصاف، وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقاً تقياً كرياً جواداً بذالاً لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود الثقفى، وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندى لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾. وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة: يا عبد الله هذا خير» فقال أبو بكر: يا رسول الله: ما على ما يدعى منها ضرورة، فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: «نعم

=

دينه، وهو يقول: أحد أحد، فمر به رسول الله ﷺ وهو يقول: أحد أحد، فقال: ينجيك أحد أحد، فأخبر أبا بكر أن بلالاً يعذب في الله، ففهم أبو بكر مراد النبى ﷺ فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب فابتاعه به، فقال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلالاً عنده، فنـزل: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وقال ابن الزبير، وهو على المنبر: كان أبو بكر يشترى الضعفة من العبيد فيعتقهم، فقال له أبوه: يا بنى لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك؟ فقال: منع ظهرى أريد. انظر الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٦/ ٤٦١). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٥٢١). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، (١٦/ ٢٧٤). والقرطبى «الجامع لأحكام القرآن»، (٢٠/ ٨٨).

وأرجو أن تكون منهم».[1]

فهذا المثل المشرق الوضيء لتلك النفوس الطاهرة التي بذلت لله وضحت له، فكان جزاؤها الرضا.

وننظر في كلام المفسرين للآيات:

وأول ما يصادفنا هو محاولة التوفيق بين قوله تعالى: ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ﴾ وقوله - جل وعلا: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾ إذ معنى ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ﴾ الحصر الذي يفيد أن غير الأشقى لا يصلاها، أى لا يصلى المؤمن العاصى النار، وأن مفهوم ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾ أن غير الأتقى لا يجنبها، بل يصلاها، فبين الحصر في الأولى والمفهوم في الثانية اختلاف.

ونلخص هنا كلام العلامة الألوسى، حيث كان أجمع من رأينا للأقوال في هذه المسألة. يقول - رحمه الله [2]: «وأجيب بأن الصلى ليس مطلق مقاساة حرها، بل هو مقاساته على وجه الأشدية، فقد نقل ابن المنير عن أئمة اللغة أن الصلى أن يحفروا حفيرة، فيجمعوا فيها جمراً كثيراً ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسط أطباقه».

وبناء على هذا الكلام يكون المعنى أن الأشقى يعذب بين أطباقها، وأما الأتقى فيبعد عنها، فلا يصلاها رأساً. وأما غير الأشقى وغير الأتقى، وهو

---

(1) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/ ٥٢١).

(2) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى»، كذلك إلى اختيار الزمخشرى «الكشاف»، وهو أن الآية واردة في الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين، فقيل: الأشقى، وجعل مختصاً بالصلى، كأن النار لم تخلق إلا له، وقيل: الأتقى، وجعل مختصاً بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلا له، وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف، وأبو بكر ﷺ واستحسن الألوسى هذا الكلام تبعاً لصاحب الكشاف بشرط ألا يقول بقول المعتزلة الباطل بتخليد عصاة المؤمنين في النار.

المؤمن العاصى، فلا يجنبها تجنب الأتقى، ولا يصلاها صلى الأشقى، فيجوز أن يعذب بعصيانه، ولكن لا يعذب عذاب الأشقى الكافر بين أطباقها، ولكن ورود على وجهها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ فالمؤمن الفائز يردها ولا يجد ألمها وعذابها، والعاصى يعذب وينجو بعد ذلك والأشقى بين أطباقها، وتلك عقيدة أهل السنة.

وذكر العلامة أبو السعود وتبعه الألوسى، في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾. أنه استئناف مقرر لمضمون ما سبق في قوله: ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.

وبتدقيق النظر، يظهر أن المعنى الثانى غير المعنى الأول. إذ معنى الأولى أنه يؤتى ماله ليكون زاكياً عند الله، ومعنى الثانية أنه هو المبتدئ بالنعم والأفضال، بغير تقدم نعم من أحد إليه لتكون مكافئته عليها، بل ابتغاء لوجه ربه الأعلى، فيكون المعنى الثانى أن يريد أن يكون مخلصاً في عمله، والأول يريد أن يكون زاكياً عند ربه، وهو من باب تكثير المعانى في النظم المعجز.

فالأتقياء إذا ليس همهم العمل فقط، بقدر ما يهمهم أن يكونوا مخلصين فيه لله تعالى، ولا يهمهم ثناء الناس وثناؤهم، وإنما يهمهم أن يكونوا أزكياء عند ربهم.

لا جرم كانت هاتان الصفتان أهم صفات المتقين، التي إذا لم تتوافر مع بقية الصفات كانت عديمة الأثر، ليس أصحابها من المؤمنين الصالحين فضلاً عن كونهم أتقياء محسنين.

وهذه صفة جديدة من صفاتهم في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٤]:

والقرآن الكريم ما زال زاخراً بصفات المتقين، يمدنا بالواحدة تلو الأخرى، ليكتمل لنا الصورة المشرقة لهؤلاء الأتقياء، ولتنجذب إليها تلك القلوب المتلهفة على رضا الله تعالى، المتطلعة إلى قربه ومحبته، فتحذو حذوها، وتسلك سبيلها، وفى ذلك سعادتها في الدنيا والآخرة.

ومن تلك المناقب العظيمة - بل هى أولى مناقبهم - التي ينبنى عليها تحققهم ببقية صفات التقوى، وشعائر المتقين، هى تصديقهم بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله تعالى وحملهم هذا الصدق لغيرهم، وهو الحق والنور والخير، ليكونوا بذلك هداة مهتدين، يستحقون بذلك عظيم الجزاء عند ربهم.

وللعلماء آراء كثيرة في تعريف من جاء بالصدق وصدق به، يحسن أن نذكرها لننتخب الرأى المناسب للآيات من ناحية، ومن ناحية أخرى المناسب لصفات المتقين.

وقد جمع الإمام ابن جرير الطبرى -رحمه الله تعالى- تلك الأقوال بأسانيدها، وتبعه عليها جمع من المفسرين، نحن نلخصها للوصول إلى المقصود.

يقول الإمام ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذي جاء بالصدق وصدق به. فقال بعضهم: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ. قالوا والصدق الذي جاء به: لا إله إلا الله، والذي صدق به أيضاً هو رسول الله ﷺ. ثم ذكر أن الذي قال ذلك من أهل العلم هو الإمام ابن عباس - رضى الله عنهما. واستطرد في ذكر بقية الأقوال، وهى أن آخرين قالوا: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والذي صدق به أبو بكر ﷺ. وهذا القول ينسبه إلى على بن أبى طالب ﷺ. وقال آخرون: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والصدق القرآن، والمصدقون به المؤمنون، وهو قول قتادة. وقال آخرون: الذي جاء بالصدق جبريل، والصدق القرآن الذي جاء به من عند الله، وصدق به رسول الله ﷺ، وهو قول السدى. وآخر قول ذكره عن مجاهد أن الذي جاء بالصدق المؤمنون، والصدق القرآن،

وهم المصدقون به، قال: الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة، فيقولون: هذا الذي أعطيتمونا، فاتبعنا ما فيه.(١)

والناظر في هذه الأحوال يستبعد القول القائل بأن جبريل هو الذي جاء بالصدق، لأنه لا يستقيم وسياق الآيات بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾ ، إذ لا يليق ذلك بجبريل عليه السلام إذا قلنا إن ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ تعود على الذي جاء بالصدق وصدق به، لأنه سيدخل في قوله: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾، وكذلك لا يليق بالرسول ﷺ ، لأن هذا القول صاحبه يزعم أن الذي صدق به هو الرسول ﷺ فكيف ينطبق عليه، لهذا الدليل رددت هذا القول، وهو مردود حتى لو قلنا إن ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ تشمل الذي صدق به فقط، لأنها وإن أخرجت جبريل عليه السلام من هذا التأويل الباطل، فقد أدخلت فيه الرسول ﷺ على أنه الذي صدق به، وهو باطل لا يليق به ﷺ .

أما القول القائل بأنهم المؤمنون، فهو القول العام الذي تشير إليه الآيات، ويكون هذا القول هو الملائم، المتناسب معها، وبالتالى يجوز أن يكون الرسول ﷺ أحد أفراد هذا العام، بل هو الأعظم ﷺ، وكذلك أبو بكر رضي الله عنه، بل هو أفضل المصدقين بالنبى ﷺ وأعلاهم درجة، وبذلك تجتمع هذه الأقوال.

وفى اختيار هذا القول العام يقول أيضاً الإمام ابن جرير ما حاصله(٢):

---

(1) الإمام محمد بن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد١١، (١٤/ ٣-٤).
وقد ذكر هذا الأقوال معظم المفسرين. انظر على سبيل المثال الزمخشرى «الكشاف»، (٣٦/ ٣٤٧). و محمود الألوسى، «روح المعانى»، (١٣/ ٤-٥). وأبا حيان الأندلسى «البحر المحيط»، (٩/ ٢٠٣-٢٠٤). وأبو الفرج ابن الجوزى «زاد المسير»، (٧/ ١٨٢).
(2) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد١١، (٢٤/ ٤).

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره عنى بقوله، والذي جاء بالصدق وصدق به، كل من دعا إلى توحيد الله وتصديق رسوله، والعمل بما ابتعث به رسوله ﷺ، وذلك يشمل الرسول ﷺ ومن قام بذلك من أتباعه، والصدق هو القرآن وشهادة أن لا إله إلا الله، والمصدق به المؤمنون بالقرآن من جميع خلق الله كائناً من كان، من نبى الله وأتباعه، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن قوله تعالى ذكره جاء بعد ذم المكذبين بالصدق، المفترين على الله، الجاحدين لوحدانيته. فالواجب أن يكون عقيب ذلك مدح لمن كان بخلاف صفة هؤلاء المذمومين، والذين كانوا كذلك يوم نزلت هذه الآية رسول الله ﷺ وأصحابه. ويدخل في جملة الآية القائمون بذلك بعدهم، لأن الله تعالى مدح على الاتصاف بهذه الصفات، فمن اتصف بها في أى زمان كان منهم، وذلك على ما ذهب إليه – رحمه الله تعالى – بقراءة ابن مسعود ﷺ: (وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدقِ وَصَدَّقُوا بِهِ)، وبما ذهب إليه بعض أهل العربية من البصريين، بأن الذي بمعنى الجمع، كما ورد قول من قال: إن الذي جاء بالصدق غير المصدق به، لأنه مخالف لمفهوم السياق، إذ المفهوم من الكلام أن الذي جاء بالصدق هو المصدق به، لا وجه للكلام غير ذلك، لأنه لو كان غيره لتكررت الذى، أى الذي جاء بالصدق والذي صدق به، وهو بعيد المفهوم كما أشار.[1]

وإذا كنا قد اعتمدنا قول الإمام ابن جرير بالعموم، لأنه لا يتعارض مع حمل الآية على الرسول ﷺ وأبى بكر، أو الرسول ﷺ والمؤمنين. فلابد أن نذكر أن قوله: «لا وجه للكلام غير ذلك» فيه نظر، لأن بعض أهل العلم، كالفخر الرازى والعلامة ابن عاشور، جعلا للكلام وجهاً غير ذلك، مقبولاً في رأيهما على الأقل، وهو أن قوله تعالى: ﴿ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ جملة الصلة لموصول محذوف

(1) انظر المصدر السابق، مجلد١١، (٢٤/ ٤).

الذى، ويكون الكلام: والذي جاء بالصدق والذي صدق به أولئك هم المتقون، وأن الحذف للإيجاز. ويكون الذي جاء بالصدق هو الرسول ﷺ والذي صدق به المؤمنون. بل قد ذكر ذلك العلامة ابن عاشور وجهاً واحداً معتمداً عنده، وأن ﴿ ٱلَّذِى ﴾ هنا على معنى الجمع.(١)

ونلاحظ أن جملة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ خبر عن اسم الموصول، والتعبير بـ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ لتمييزهم أشد التمييز. وما يكون ذلك إلا لأنهم قد تحققوا مما جاء به النبى ﷺ علماً وعملاً ودعوةً، إذ لا يعقل أن نشير إليهم بأنهم المتقون لا متقين غيرهم - وهو ما يفيده ضمير الفصل ﴿ هُمُ ﴾ من القصر عليهم - ويكون حظهم من ذلك مجرد التصديق، بل صدقوا بكل ما جاء به النبى ﷺ وآمنوا، وصدق فعلهم وسلوكهم إيمانهم وتصديقهم، ثم جاءوا غيرهم بهذا الهدى والنور ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وليس ذلك فقط، وإنما تنبئ الآية كذلك أنهم قد أخذوا الكتاب بقوة، حيث صدقوا به كله، وعملوا به كله، ودعوا إليه كله، لم يفرطوا في شئ، ولم يقصروا في شئ ظاهراً وباطناً، وإلا لما كانوا هم المتقين، الذين قصرت عليهم التقوى، ولما كانوا الممدوحين الأخيار، إذ كيف يكون تقياً ممدوحاً صالحاً من شك فيما جاء به الرسول الأعظم ﷺ، أو قصر في العمل، أو فرط في العمل، أو فرط في حمل

---

(١) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١٣/ ٤٤٠). وعنده أن أبا بكر هو الذي صدق به. والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٤/ ٧-٨). وقد ذهب جملة من العلماء إلى أن حذف الموصول لا يجوز، فلعل هناك وجهاً أخذ به الفخر الرازى والعلامة ابن عاشور، خاصةً مع تيقن اطلاعهما عليه، إذ هو مذكور فيما ينقلان عنه من كتب التفسير والعربية. العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، مجلد١٣، (٢٤/ ٥).

مسؤولية تبليغه والدعوة إليه؟!

وذكرنا أن ضمير الفصل ﴿ هُمُ ﴾ يفيد القصر في قوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾، أى هم لا أحد غيرهم، فيفيد قصر جنس المتقى على الذي جاء بالصدق وصدق به. ولم يكن يوم نزول الآية إلا النبى ﷺ وأصحابه، فيكون المعنى أنه لا متقى إلا الرسول ﷺ وأصحابه، وأن أصحابه كلهم متقون، فتكون الآية واضحة الدلالة على أن رتبة صحبة النبى ﷺ عظيمة، وأن منزلتهم في التقوى أعلى المنازل، فإنهم لما أشرقت على نفوسهم أنوار الرسول ﷺ فطهرت ضمائرهم مما كانوا فيه، وصاروا موصوفين من الله بالتقوى، وتحقق فيهم ما أريد من إنزال القرآن في قوله: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ في نفس السورة.

لذلك رأينا رسول الله ﷺ ينبه على مكانتهم ﷺ أجمعين بقوله: «لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».(١)

وكأنه ﷺ يستشف الغيب ليرى أناساً منحرفين، يسيئون إلى الصحابة ﷺ يراهم وقد طعنوا بذلك في القرآن الذي شرَّف قدرهم وأعلى منزلتهم، حيث خالفوهم ووقعوا فيهم. والآيات والأحاديث غير ما ذكرنا كثيرة تدل على هذا المعنى.

لذلك أوصى أئمة السلف الصالح ألا يذكر أحدٌ من أصحاب النبى ﷺ إلا بأحسن الذكر، وبالإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس بأن يلتمس لهم أحسن المخارج فيما جرى بين بعضهم البعض، ويظن بهم أحسن المذاهب، فإنهم جميعاً قدوتنا، وواسطة تبليغ الشريعة إلينا، والطعن في بعضهم يفضى إلى الطعن

---

(١) رواه مسلم (٢٥٤٠). وانظر أبى زكريا النووى «شرح صحيح مسلم»، (٨/ ٣٣٢).

في القرآن، ولذلك أثبت علماؤنا عدالة جميع أصحاب النبى ﷺ، إذ هم المتقون البررة، أصحاب الرسول العظيم، الذي لم يكن الله -جل وعلا- ليختار له إلا أحسن الاختيار ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولما قصر القرآن الكريم على هؤلاء الأصفياء جنس المتقين، وأثنى بذلك عليهم هذا الثناء البالغ، كان يقتضى ذلك أن يسأل السامع عن جزاء هذه المزية العظيمة. ومعناها أن لهم كل ما يتمنون ويريدون في الجنة، وهو كناية عن سعة العطاء، الذي يقول فيه الرسول ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[(١)]، وهو كما يقول من أسديت إليه عملاً عظيماً: لك عندى ما تسأل، وأنت تريد غاية الإحسان إليه. والمؤمن خبير بعظم جزاء قد التزمه له ربه، وأى جزاء أعظم من أن يلتزم لهم بكل ما يشاءون، ومن أصدق من الله قيلاً؟ ومن أعظم منه عطاءً وكراماً؟ وقد أضيف إلى الربوبية لينوه بعظيم ما أعد لهم – جل وعلا، وبالعندية للتشريف لهم ورفع منـزلتهم.

ثم أشار إلى ما يشاءون باسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ لتضمنه كذلك تعظيم شأن المشار إليه.[(٢)]

لم يكن الغرض فيما سبق هو ذكر جزاء المتقين، فله فصل خاص، وإنما الوصول إلى تلك الصفة من صفات المتقين، التي وصفهم بها القرآن الكريم مع

---

(١) رواه البخارى (٣٢٤٤) وانظر الحافظ بن حجر العسقلانى، «فتح الباري»، (٦/ ٣١٨). ورواه مسلم (٢٨٢٤). وانظر أبى زكريا النووى «شرح صحيح مسلم»، (٩/ ١٨١) كلاهما عن أبى هريرةﷺ .

(٢) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٤/ ٨).

التقوى في أكثر من موضع، وهى صفة الإحسان، كقوله في سورة آل عمران: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، وقوله في سورة الذاريات: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ذلك جزاؤهم، فأظهر وصفهم في مقام الإضمار، وأظهره بالإحسان وليس بالتقوى، ليفيد الثناء عليهم بهذه الدرجة العليا من درجات الدين، وهى أن تعبد الله كأنك تراه، وهى كمال التقوى. فكل صفات التقوى السابقة لا يصل أهلها إلى ذروة سنامها إلا بالإحسان، وهم تبوءوا هذه المكانة وتلك القمة، فاستحقوا بذلك الثناء والجزاء.

فأى إحسان وأى تقوى أعظم من نبذ الصحابة ما نشأوا عليه من عبادة الأصنام، ومن تحملهم مخالفة أهليهم وذويهم وعداوتهم وأذاهم، ومن صبرهم على مصادرة أموالهم ومفارقة نسائهم، تصديقاً للذى جاء بالصدق، وإيثاراً لرضا الله على شهوة النفس ورضا العشيرة.(١)

وإلى الموضع التالى من صفات المتقين حيث يقول الرب – جل وعلا:

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل: ٣٠-٣٢]:

كانت الآيات السابقة تبين لنا ما اتصف به المتقون مما يحب الله تعالى من صفات. أما هذه الآيات الكريمة فهى توضح لنا هؤلاء المتقين، واعتقادهم فيما أنزل الله – جل وعلا، وما جاء به النبى ﷺ، وأنه اعتقاد جازم لاشك فيه ولا

(١) انظر الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير، ، (٢٤/ ٩).

تردد مع الانشراح به والمحبة له، حيث لم يتلعثموا ولم يترددوا عندما سئلوا عما أنزل ربهم أن قالوا: أنزل خيراً في الدنيا والآخرة، خيراً تصلح به أحوال المرء والمجتمع والدنيا بأسرها، رحمة وبركة لمن تبعه في الأولى ويوم القيامة. فكانت إجابتهم مطابقة للسؤال سبكاً، ومطابقة للواقع مضموناً.

والآيات – كما نقرأ – معطوفة على ما قبلها، حيث ذكر القرآن الكريم صفات الظالمين الكافرين الجاحدين، الذين لما سئلوا نفس السؤال قالوا: أساطير الأولين «برفع أساطير»، أى هو أساطير الأولين وليس من الإنزال في شيء. وهو الفارق بين النصب في إجابة المتقين والرفع في إجابة الجاحدين.(١)

ذكر أهل التفسير أن هذه الآيات نزلت عندما وقف كفار مكة للمؤمنين بالإيذاء، فتنة لهم عن دينهم، وصداً لغيرهم عن الإيمان، حيث أرصدوا رجالهم ليعترضوا الوافدين إلى مكة المكرمة أيام الموسم، ليحذروهم من النبى ﷺ ومن الإيمان بما جاءهم به من عند الله، قائلين لهم: إنه مجنون وساحر، وما يتلوه أساطير الأولين، فيرجع الوافدون بذلك إلى أقوامهم. ومن حاول منهم أن يستطلع أمر النبى ﷺ والمؤمنين، وأن يسمع قولهم ويعلم شيئاً عن دينهم، حتى لا يكون شر وافد لقومه إذا رجع بغير مقابلة الرسول ﷺ والمؤمنين، فإنه يقابل المؤمنين ليسمع منهم، فإذا إجابتهم أن الله أنزل خيراً للناس في الدنيا والآخرة – إن هم أطاعوه واتبعوه – فيكون ذلك سبب إسلام بعضهم.(٢)

والذى يعنينا في هذا الخبر هو مدى تصديق المتقين الجازم بما أتاهم به النبى

---

(1) انظر جار الله الزمخشرى « الكشاف»، (٢/ ٣٢٧). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٤/ ١٤١). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٣/ ٢٦٠). وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد٧، (١٤/ ٦٩)، وغيرها.

(2) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد٧، (١٤/ ٦٩).

ﷺ والتمسك به، والجهر به، وإعلانه في مثل تلك الظروف السيئة وتلك الأيام العصيبة، مع وصفهم إياه بأنه الخير الذي لا خير سواه، سواء في توحيدهم ونبذهم الأصنام، أو في عبادتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم، وكذلك فيما ينتظرهم من الجزاء الذي هو من جنس اعتقادهم الجميل ﴿ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾.

وأشارت الآية في جواب المؤمنين إلى معنى يهم كل أحد، وهو سؤاله عن دنياه وحاله فيها إذا هو آمن؟ فكان ردهم أن للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة. وعبر بالإحسان- كما هو شأن القرآن الكريم كما أشرنا من قبل في الإشادة بالمتقين - إذ الإحسان أعلى درجات التقوى، وهو عمودها، والمهم فيها.

وحسنة الدنيا التي تهمهم تشمل كل ما تكون به حياتهم حسنة، أى تلك الحياة الطيبة الرضية مع ما يضيفه سبحانه إليها من نصر وفتح، أو من رزق ومتاع، أو من زوجة تقية وأولاد صالحين، أو رفعة وذكر حسن وثناء جميل. فتلك حسنة المتقين في الدنيا، الذين حسن اعتقادهم فيما أنزل ربهم، وقابلوه بالطاعة والانقياد، والتسليم والرضا.

ولا يظنن ظان أن ذلك منهم كان مجرد التصديق بغير عمل التقوى، بل لو كان كذلك لكان المشركون أول الناس إنكاراً عليهم بقولهم: إذا كان ذلك خيراً فلم لا تعلمون به ولا تقومون عليه؟

ونلاحظ في الآية أيضاً أن السؤال كان للمؤمنين في مكة المكرمة: ﴿ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾، وإنما عبر القرآن الكريم بـ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ﴾، ولم يقل للذين آمنوا مثلاً، لأن جوابهم هذا الجميل كان ناشئاً عن أعظم صفاتهم، وهى صفة التقوى. فكانت التقوى مصدر تسليمهم وإذعانهم وصبرهم ودعوتهم.

وهذا المعنى بمفهومه يجرنا إلى قضية مهمة وخطيرة هذه الأيام، وهى قضية الطعن في الشريعة والإسلام من المتسمين بأسماء إسلامية وتحت مسميات براقة: التنوير، وجعل الشريعة متوائمة مع العصر، وتأويل الأحكام التي لا تتفق مع

الحداثة، والعمل بروح الشرع، وفصل الدين عن الدنيا أو الدولة، والاعتراض على أحكام الدين اعتراضاً ظاهره الرحمة وباطنه الكفر، وكل ذلك ليس من استقبال ما أنزل الله وما جاء به رسوله ﷺ بالتسليم وبكونه خيراً في شيء، بل للأسف هو أشبه بقول الظلمة الجاحدين: أساطير الأولين، وذلك دلالة على أنهم ليسوا متقين، لأنا علمنا رأى المتقين فيما جاء به الرسول ﷺ، فمن قال فيه غير ذلك فليس من التقوى في شيء. فتيقنا بذلك أن هؤلاء ليسوا متقين مع حسن الظن بهم، فما بالك لو ذكرنا فيهم ما يستحقون، أقله العمالة الفكرية، وتنقص الشريعة، كأساتذتهم من المستشرقين والمستغربين، ليسوا كأسلافهم مؤمنين.

وأفادت الآيات علو مكانة الصحابة مرة أخرى عند الله – جل وعلا، لأن الآيات نزلت فيهم، فكان المعنى أن أصحاب النبى ﷺ هم الأتقياء المحسنون، الذين كانت عقيدتهم أن ما جاء به الرسول من عند الله تعالى هو الخير، وكذلك كان تطبيقهم لذلك الخير، حيث تمثلوه سلوكاً واقعاً، ونشروه علماً ودعوة، مع تحملهم في سبيل الله – سبحانه – كل أنواع الأذى، فصاروا بذلك قدوة المؤمنين المتقين، ومثلهم الأعلى المنشود.

ثم استطردت الآيات – بعد ذكر ما أعد الله للمتقين من ثواب، جنات لهم فيها ما يشاءون – إلى وصفٍ آخر من أوصاف المؤمنين المتقين، وهو أنهم تتوفاهم الملائكة طيبين، على عكس الظالمين الجاحدين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم، فهم يخالفونهم عقيدةً وسلوكاً، وعاقبةً ووفاةً.

والطيب: بزنة (فَيْعِل)، مثل: قيِّم، ومَيِّت. وهو مبالغة في الاتصاف بالطيب، وهو حسن الرائحة. ويطلق على محاسن الأخلاق وكمال النفس، على وجه المجاز، فتوصف به المحسوسات كقوله تعالى: ﴿ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [البقرة: ١٦٨]، والمعانى والنفسيات، كقوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾ [الزمر:

٧٣]، وقولهم: طبت نفساً، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ [الأعراف: ٥٨]، وفى الحديث: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا»[(١)]، أى: مالاً طيباً حلالاً.

فقوله تعالى هنا: ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ يجمع كل هذه المعاني، أى: تتوفاهم الملائكة منـزهين من الشرك والدنس ومن كل سوء، فرحين مطمئنين ببشارة الملائكة إياهم بالجنة، قد وصفوا اعتقاداً وعملاً وخلقاً ونفساً وظاهراً وباطناً بأحاسن الصفات وكريم السجايا.

وتشير الآية إلى الأهم في هذه الصفة وهى أن ما هم فيه من طهارة ظلوا عليه حتى وفاتهم، أى عاشوا دنياهم مطهرين من كل ما أشرنا، متصفين بكل ما ذكرنا، إلى أن جاءتهم ملائكة الموت يسلمون عليهم، ويبشرونهم برضا الله عنهم، وبدخولهم الجنة.

فكانت تلك البشريات لأهل الإيمان الأتقياء حثاً[(٢)] للمؤمنين أن يتطهروا بالتقوى، وأن تطيب نفوسهم وأعمالهم، ثابتين على ذلك حتى الممات، عندما يقال له: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا ﴾ [الزمر: ٧٣].

فرأينا هذه الصفة الجديدة تضاف لصفات المتقين التي يجب أن يحرص عليها المؤمنون، أن تطيب جوارحهم وقلوبهم وأبدانهم بأعمال التقوى وأقوالها، واعتقاداتها وأخلاقها، لا أن يتصفوا بها فقط، وكذلك ألا يتململوا من حملها، بل يكونوا ثابتين عليها، متمسكين بها، إلى بشارة الملائكة لهم عند قبض أرواحهم: ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

---

(1) الحديث رواه مسلم (١٠١٥). وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٤/ ١٠٧). ورواه الترمذى (٢٩٨٩).

(2) انظر العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٣/ ٢٦١).

[فصلت: ٣٠].

يقول الإمام الفخر الرازى: «وقوله تعالى: ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ كلمة مختصرة جامعة للمعانى الكثيرة، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به، واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه، ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة، مبرئين عن الأخلاق المذمومة، ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية، متوجهين إلى حضرة القدس والطهارة، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الأرواح، وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة، حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها، ومن هذه حاله لا يتألم بالموت».(١)

وإلى موضع آخر من صفات المتقين وهو قوله تعالى:

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [التوبة: ٤٤]:

وجاء دور الجهاد بالمال والنفس، وهو ذروة سنام الإسلام، حيث نرى المتقين وقد تبوءوا الدرجة العالية منه، وحازوا فيه قصب السبق. وصفات المتقين السابقة كالتوطئة والتمهيد لهذه السجية الحسنة من سجاياهم، فإنه لا يستطيع المؤمن أن يجاهد عدوه الخارجى ويثبت له إلا أن يكون قد جاهد عدوه من داخله، نفسه وهواه وشيطانه، إذ كل أولئك من عوامل التثبيط والهزيمة والفرار أمام العدو الخارجى.فمتى انتصر المؤمن على هؤلاء الأعداء – بتحقيق صفات التقوى السابقة – فإنه جدير أن ينتصر على عدوه المتربص به أو الغازى له، لأنه إذا ما انهارت خطوط الدفاع الأولى بهبوط المعنويات، وتزلزل الإيمان، وضعف القوى الدافعة، فإن الهزيمة أقرب شىء لمثل هؤلاء، وإن نصر أعدائهم عليهم هو الراجح. وقد رأينا مصداق ذلك وبرهانه فيما وصل إليه حال

(1) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٩/ ٥١٨).

المسلمين اليوم، لما فقدوا مقومات النصر - وهى ملخصة في قوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ - خذلهم الله تعالى، وترك نصرهم، فتمكن منهم عدوهم.

إن بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى هو التجارة الرابحة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١١].

والمتقون لما علموا ذلك ضربوا في هذه التجارة بأوفر سهم، وإلا لم يستحقوا أن يكونوا هم المتقين، أولياء - جل وعلا، إذ لا يبخل عليه - سبحانه - بما وهب متقٍ أبداً، وهو بخل على نفسه وعلى نجاتها.

ونستطلع الآية الكريمة فإذا هى تبين أن المتقين على خلاف المنافقين، فإن المنافقين يستأذنون النبى ﷺ ليس ليجاهدوا بل ليتخلفوا عن الجهاد، وذلك دأبهم أبداً. أما المتقون فإنهم لا يستأذنون في الجهاد، ولا ينتظرون السماح لهم به، بل يخرجون زُرَافاتٍ ووحداناً بمجرد سماعهم «حى على الجهاد»، يطلبون إحدى الحسنين: النصر أو الشهادة. ويكون معنى الآية على هذا التفسير: إن المتقين لا يستأذنون في أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بل يبادرون إليه بدون توقف على الإذن، وأما التفسير الثانى فهو أن المتقين لا يستأذنون في التخلف وترك الجهاد، ويكون المعنى: لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر لئلا يجاهدوا، وذلك كقوله تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ ﴾ [النساء: ١٧٦]، أى: لئلا تضلوا، ودل على ذلك سياق الآيات من قبل ومن بعد، إذ هى في ذم التخلف.

والمعنيان حق، لأن المتقين لا يستأذنون في الجهاد، فضلاً عن الاستئذان

للتخلف ولا يتوقفون في بذل أنفسهم وأموالهم لله تعالى على إذن، بل يبادرون ويتسابقون ويسارعون. وكان الأكابر من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبى ﷺ في الجهاد، فإن ربنا ندبنا إليه مرةً بعد أخرى، فأى فائدة في الاستئذان؟ وكانوا بحيث لو أمرهم الرسول ﷺ بالقعود لشق عليهم ذلك. فهذا على بن أبى طالب، لما أمره رسول الله ﷺ في غزوة تبوك بأن يبقى في المدينة شق عليه ذلك، ولم يرض إلى أن قال له الرسول ﷺ: «أنت منى بمنـزلة هارون من موسى».[1]

روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من خير معاش الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هَيْعة أو فزعاً طار على متنه يبتغى القتل أو الموت مَظَانَّه».[2]

والآية الكريمة ابتدأت بنفى المضارع الدال على الاستمرار، فلا يبعد أن يكون المعنى أن تلك عادتهم في عدم الاستئذان، كما قال الحماسى:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهاناً[3]

وأساس الجهاد والدافع له والحامل عليه أشار إليه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾، وهو كذلك ما جعل المنافقين لا يجاهدون لخلو قلوبهم منه. وذكر الإيمان بالله واليوم الآخر من دون بقية عناصر الإيمان، لأنها ركيزته وأصله الذي تنبنى عليه الطاعة والعمل الصالح، فإن الإيمان بالله يحث المرء على العمل محبةً لله تعالى، ورجاءً فيه، وخوفاً منه، وطلباً لرضاه،

---

(١) صديق خان «فتح البيان»، (٤/ ١٣٧).

(2) رواه مسلم (١٨٨٩)، وانظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٧/ ٤١).

(3) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى»، (٦/ ١٥٨-١٥٩). وكذا: الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٨/ ٢٣-٢٤).

والإيمان باليوم الآخر يسوق المؤمن إلى الطاعة والمسارعة إليها خشية العرض على الله تعالى، وخوفاً من الحساب والعقاب، وطمعاً في الأجر والثواب. علاوةً على أن العمل بسبب الإيمان بالله واليوم الآخر دليل الإخلاص، فإن المخلص يعمل يريد بعمله وجه الله والدار الآخرة، وهى صفة مهمة كما ذكرنا من قبل في صفات المتقين، لا يقبل عمل بغيرها، بل على العكس إذا لم تتحقق فإن عقاب الله هو الجزاء حينئذ. وهى في الجهاد لابد أن تكون أشد وضوحاً: أن يجاهد المرء يريد الله تعالى والدار الآخرة، لا يريد بجهاده بنفسه وماله شيئاً آخر، كما سئل النبى ﷺ: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياءً، أى ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله».(١) فكان التنصيص على الإيمان بالله واليوم الآخر لتلك المعانى، ولامتلاء قلوب المتقين منها.

ونعود إلى الكلام على المتقين، حيث نرى الآية وقد ختمت بقوله - جل شأنه: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾، لتكون شهادة لأولئك السابقين بالتقوى، لوضع المظهر موضع المضمر، إذ السياق: والله عليم بهم، فلما قال: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ دل على تلك المنقبة العظيمة لهم. وتحتمل الآية جنس المتقين، ويكون المذكورون داخلين فيهم دخولاً أولياً. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ عِدَةٌ لهم بالثواب الجزيل، فإن قولنا: «أحسنت إلى فأنا أعلم بالمحسن» وعدٌ بأجزل الثواب، و«أسأت إلى فأنا أعلم بالمسىء» وعيدٌ بأشد العقاب.

ويمكن أن نقول أيضاً: إن قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ تقرير لمضمون ما سبق، كأنه قيل: والله عليم بأنهم كذلك.(٢)

---

(١) الحديث رواه البخارى (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤)، وأبو داود (٢٩١٧)، والترمذى (١٦٤٦)، والنسائى (٦/ ٢٣)، وابن ماجه (٢٧٨٣).

(٢) انظر لما سبق العلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد٦، (١٠/ ١٥٩-١٦٠).

وفيه أمر مهم ينبئ عن التقوى ذاتها وما يصدر عنها من خير، وهو أن ما صدر منهم من المسابقة إلى الجهاد وغيره إنما هو معلل بالتقوى[1]، بكونهم متقين. ويكون معناه أن تقواهم سبب تلك الأخلاق الفاضلة، والأعمال الجليلة، والصفات الحسنة التي رأيناها منهم.

ونلاحظ في الآية الكريمة أنها لم تذكر في صفات المتقين أنهم يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، بل قالت: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾، وكأنه معلوم قصدهم ووجهتهم من أحوالهم الحسنة، أنهم لا يجاهدون إلا في سبيل الله تعالى، ليس لهم هدف إلا رضاه – جل وعلا. ويؤيد هذا أنهم لا يستأذنون، بل يسارعون بغير توقف على إذن إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم. ولا تكون المسارعة من هؤلاء الأتقياء إلا في سبيل الله تعالى، لا لشهوات النفس وحظوظها. فكان هذا الإضمار في غاية المدح لهم والثناء عليهم.

وهذا على عكس المنافقين، حيث صرح القرآن الكريم بكراهتهم للجهاد في سبيل الله، وليس للجهاد فقط، فقال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، أي: كأنه يقول: وكرهوا أن يجاهدوا في أعظم سبيل وأشرفه وأكرمه. وهذا يبين لنا درجة المتقين وثناء الله عليهم وحسن عاقبتهم.

والموضع التالي من صفات المتقين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

---

(1) انظر العلامة الألوسي «روح المعاني»، (٦/ ١٥٩). وكذلك أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/ ٤١٢-٤١٣).

وإذا كان المتقون -كما ذكرنا من قبل- قد اتصفوا بتلك الصفات النبيلة والأعمال الحسنة، فإنهم في نفس الوقت ليسوا معصومين من الخطأ، ولا منزهين كمال التنزه من الوقوع في المخالفة، بمقتضى بشريتهم. ولكنهم لتقواهم ليسوا كغيرهم من البشر الخاطئين، ولا كغيرهم من المؤمنين المذنبين، سواء في وسوسة الشيطان لهم ومحاولة الإيقاع بهم، أو في استجابتهم لكيده ونزغه.

إن الآية الكريمة تبين لنا ذلك من خلال التقرير والتأكيد لقيمة التقوى، فالمتقون يطيف بهم الشيطان، يريد انتهاز الفرصة ليوقعهم في المعصية، يحاول جهده أن يصل إليهم، وإذا وصل فإنما هو مس لا يصل إلى درجة التمكن وحقيقة الهلاك. ومع ذلك لا يطول بهم مسه، إذ سرعان ما يتذكرون ربهم وأمره ونهيه، وجلاله وعظمته، وعذابه ونقمته، ليرجعوا إلى الله، فتزول عنهم تلك الغشاوة، وتنقشع عن بصائرهم هذه الظلمة، ليبصروا بسرعة طريق الله وسنة نبيه مرةً أخرى، فيزيحوا عنهم خواطر الشيطان ويرجعوا إلى سبيل ربهم، ويستعيذوا مما طاف بهم من وساوس الشيطان، ويتوبوا مما يكون قد مسهم من كيده لهم بالمعصية والمخالفة.

كل ذلك على خلاف غيرهم - الذين ذكرهم الله بعد ذلك - بأن الشياطين إخوانهم، أى ملازمون لهم لا ينفكون عنهم، لشدة تمكنهم منهم، يوقعونهم في الأهواء والمعاصى والشهوات، وفى نفس الوقت لا يبصرون ولا هم يذكرون ليرجعوا أو يتوبوا، بل كما ذكر الله تعالى: ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] وهذه الحالة ابتداءً وانتهاءً قد صورها القرآن الكريم في قوله: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

أما المتقون الخلص من عباد الرحمن، فقد ذكر المولى - سبحانه وتعالى - حسن حالهم على لسان الشيطان نفسه، فقال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢-٨٣]. وهذا يبين لنا بوضوح وجلاء قيمة التقوى في حفظ أهلها من نزغ الشيطان ووسوسته وإغوائه، وأنها الحصن الآمن لهم من ذلك، وفى نفس الوقت هى قوى الإيمان الكامنة في قلوبهم، التي سرعان ما تعود بهم إلى طريق الحق، وإبصار الصواب، والتحرز من مكايد الشيطان ومواطن الخطأ.

ويبين لنا صفة مهمةً من صفات المتقين، وهى سرعة تذكرهم وإبصارهم ورجوعهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

يقول صاحب «روح المعانى» العلامة محمود الألوسى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ استئناف مقرر لما قبله – أى في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ – من الأمر ببيان أن الاستعاذة سنة مسلوكة للمتقين، والإخلال بها شنشنة الغاوين، أى إن الذين اتصفوا بتقوى الله تعالى إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا، أى لَمَّة منه – كما روى عن ابن عباس، وتنوينه للتحقير، والمراد وسوسة ما، وهو اسم فاعل من طاف بالشىء إذا دار حوله.

وجعل الوسوسة طائفاً للإيذان بأنها وإن مست لا تؤثر فيهم، فكأنها طافت حولهم ولم تصل إليهم. وجوز ان يكون من طاف طَيْف الخيال إذا ألَمَّ في المنام، فالمراد به الخاطر «الشيطانى». وذهب غير واحد إلى أن المراد بالطائف الغضب.

والمراد بالشيطان الجنس، لا إبليس فقط، ولذا جمع ضميره فيما سيأتى.فإذا حدث لهم شئ مما سبق تذكروا ما أمر الله تعالى به ونهى عنه، أو الاستعاذة به تعالى والالتجاء إليه سبحانه، أو عداوة الشيطان وكيده، فإذا هم بسبب ذلك التذكر مبصرون مواقع الخطأ ومناهج الرشد، فيحترزون عما يخالف أمر الله، وينجون عما لا يرضيه سبحانه وتعالى.[1]

---

(١) انظر العلامة محمود الألوسى «روح المعانى»، (٦/ ٢١٥).

ونلاحظ على الآية:

أولاً: أن كلمة ﴿ إِذَا ﴾ من قوله: ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ مع التعبير بفعل ﴿ مَسَّهُمْ ﴾ الدال على إصابة غير مكينة – كما ذكرنا – إشارة إلى أن الفزع إلى الله من الشيطان، عند إبتداء إلمام الخواطر الشيطانية بالنفس، لأن تلك الخواطر إذا أهملت أو أمهلت وتمادى معها المرء لم تلبث أن تصير عزماً ثم عملاً، لذا قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَنِ ﴾ [البقرة: ١٦٨]، لأنه كل ما يقع المرء فيه من الموبقات مبتدأه الاسترسال مع تلك الخواطر الشيطانية، لأن الشيطان لا يأمر بالزنا والسرقة مباشرةً، ولكنه يوسوس ويزين خطوة خطوة، حتى يقع المرء في شركه وأذاه.

لذا كانت منقبة عظيمة من مناقب المتقين أن حرسوا خواطرهم، ولم يسترسلوا فيها مع الشيطان، بل لجأوا إلى الله تعالى، واعتصموا به عند أول كيد له وخواطر منه، وصدوا تلك الوساوس مبصرين مناهج الرشد ورضا الله تعالى، وهو ما ينبغى أن يقوم به المؤمن في تلك الأحوال.

ثانياً: أن الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ للتعقيب، وهى لتفريع الإبصار على التذكر. وقد أكد معناها بـ﴿ إِذَا ﴾ الفجائية الدالة على حصول جملتها دفعة بدون تريث، أى تذكروا تذكر ذوى عزم، فلم تتريث نفوسهم أن تبين لها الحق الوازع عن العمل بالخواطر الشيطانية فابتعدت عنها، وتمسكت بالحق، وعملت بما تذكرت، فإذا هم ثابتون على هداهم وتقواهم.

ثالثاً: أن الإبصار هنا استعير للاهتداء، كما يستعار العمى- وهو ضده – للضلال، أى: فإذا هم مهتدون ناجون من تضليل الشيطان وغشاوته وإظلامه طريقهم، لأن الشيطان أراد إضلالهم فسلموا من ذلك. ووصفه باسم الفاعل دون الفعل للدلالة على أن الإبصار ثابت لهم من قبل، وليس شيئاً متجدداً، ولذلك أخبر عنهم بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات، ويقوى هذا

المعنى قوله تعالى: ﴿ تَذَكَّرُواْ ﴾، والتذكر استحضار المعلوم السابق الذي يدل على تقواهم.(١)

فكانت الآية الكريمة دالة على عدة مناقب للمتقين المحسنين، تبين حسن صلتهم بالله تعالى، مع عناية الله - جل وعلا - بهم، بسبب ما قدموا من تقوى كانت السياج الواقى الذي كان لا يتمكن بسببه الشيطان منهم والنور الذي تنقشع به الظلمة، والبصيرة التي تزول بها الغشاوة عن عيونهم وقلوبهم.

وهاتان صفتان أخريان من صفات المتقين:

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩ ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩]:

ذكرت الآية الكريمة صفتين من صفات المتقين، وهى وإن نزلت في اليهود، فإن تقوى الله لا تختلف صفاتها، حيث هى دعوة الرسل جميعاً إلى الله تعالى، ومصداق ذلك من الآية الكريمة الأولى حيث وصفت التوراة بما وصف الله جل وعلا به القرآن الكريم من كونها فرقاناً وضياء وذكراً، وهى بعينها من أوصاف القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١ ﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] وهذا يدل على وحدة مصدر الرسالات الصحيحة إلى الإنسانية، وعلى أن هذه الرسالات كلها فرقان بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال.

ونعود إلى ما ذكرت الآية من صفات المتقين ، فكانت الصفة الأولى لهم هى

---

(١) وانظر العلامة محمد طاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/ ٢٣٢-٢٣٣).

أنهم يخشون ربهم بالغيب، وإن قلنا إن هذه الصفة هى أعظم مناقب المتقين بعد الإيمان بالله لم نبعد، لكونها الحاملة لهم على كافة الصفات السابقة؛ فإن خشية الله تعالى تحمل على الصلاة والزكاة وآداء بقية أركان الدين، وكذلك تحمل على التوبة والاستغفار والإنابة إلى الله -سبحانه وتعالى، كما تحمل بلا شك على الصدق والإخلاص وأداء الأمانة، وترك الغش والكذب والخديعة، وتحث على المعاملة الحسنة والأخلاق الراشدة إذ هى منبئة عن مراقبة الله – سبحانه وتعالى.

ونلاحظ أن الآية ذكرت خشية المتقين لله تعالى بالغيب، أى خوفهم منه، حيث لا يطلع عليهم أحد، إذ في عدم وجود الخلق يسهل ارتكاب المعصية، والوقوع فيما يغضب الله تعالى أو تحملهم خلوتهم على الكسل عن الطاعة والتفريط في أوامر الله، إذ المرء يخشى ذلك عند رؤية الناس له. فما بالك بخشيتهم لله تعالى في العلانية. فهم يخافون ربهم في خاصتهم، لا يريدون بذلك رياء، ولا لأجل خوف الزواجر الدنيوية، والمذمة عند الناس[1] فمن باب الأولى يخشون ربهم في علانيتهم.

هؤلاء المتقون إذن يكون القرآن الكريم لهم فرقاناً وضياء وذكراً فهم مختصون بذلك كما ذكرنا في سورة البقرة تخصيص المتقين بالهداية.

وأما الصفة الثانية لهم هنا فهى الإشفاق من الساعة، وهو الخوف والحذر منها، إذ هى الطامة الكبرى، التي لا يغنى فيها مولى عن مولى شيئاً، ولا يدفع فيها سلطان ولا جاه ولا مال، والتي لا يغنى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، بل على العكس يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وذلك لما يغشى الناس من الأهوال والكرب، ولا يدرى المرء أين يذهب به، المتقون تقوم بقلوبهم

---

(١) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٧/ ٩٠).

تلك الشواهد من شواهد الآخرة تدفعهم إلى دوام تذكر ذلك اليوم، الذي لا ينجِّى فيه إلا العمل الصالح وتقوى الله تعالى، فيبعثهم على الاستعداد له، وحسن الورود عليه بما يقيهم تلك الأهوال، وأن التقصير والتفريط، أو المعصية والمخالفة يزيد عليهم تلك الأهوال والكرب، التي لا قبل لأحد بشيء منها.

ونلاحظ في الآية استخدام المضارع ﴿ تَخۡشَوۡنَ ﴾ في الغيب، وهو يدل على تكرار ذلك منهم، فما يكونون في الغيب إلا وخشية الله تعالى تحوطهم، أى يخشونه في كل غيب.

وأما الإشفاق من الساعة فقد آثر القرآن الكريم الجملة الاسمية وذلك للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه، أى إن وصفهم الملازم لهم هو الخوف من القيامة، وهذا يبين تلك المنزلة الرفيعة التي لا يصل إليها إلا من وصل إلى درجة عالية من التقوى، بحيث لا تغيب الساعة عن خاطره، مما يدل على تمام التحرز وكمال الاستعداد، وهذا يدل على أن المتقين في واد والناس في واد آخر.

ونلاحظ أن الآية بعدما بينت خشيتهم على الإطلاق، خصصت الساعة بإشفاقهم، وفى ذلك يقول العلامة أبو السعود في تفسيره «إرشاد العقل السليم: «وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها معظم المخوفات، وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون»[1] ويقصد بـ«المستعجلون» الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ ﴾ [الشورى: ١٨]، والمستعجلون أى الذين يطلبون تعجيل قيام الساعة والإسراع بذلك من النبى ﷺ ليبين صدقه، وما قالوا ذلك إلا

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم» ، (٣/ ٥٢٢)، وكذلك الألوسى «روح المعانى» بنصوصه (١٧/ ٦٨).

تهكماً واستهزاء، وكناية عن اتخاذهم تأخرها دليلاً على عدم وقوعها وهم آيسون منها كما دل عليه القول المقابل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾: فكان ذلك برهان تقوى المؤمنين إيماناً وعملاً.

وهكذا ترى القرآن الكريم يسوق تلك الصفات كلها لتكون سبل أهل الإيمان ليتحلوا بها، وليجاهدوا أنفسهم على التخلق بتلك الأخلاق والاهتداء بذلك السلوك.

ونختم الفصل بهذا الدعاء: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٤٦٢]:

ويحق لنا أن نختم به ليبين أن المتقين همتهم أعلى من الوصول إلى التقوى، بل الوصول إلى الإمامة فيها وكذلك ليكون هذا الدعاء هجير المرء حال بحثه في التقوى وصفات المتقين.

وهذا الدعاء في سياق قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

ولتفسير الآية نسوق قول العلامة بن عاشور في « التحرير والتنوير»: «وكما سألوا التوفيق والخير لأزواجهم وذرياتهم سألوا لأنفسهم بعد أن وفقهم الله إلى الإيمان أن يجعلهم قدوة يقتدى بهم المتقون».[1]

وهذا يعنى أن المتقين بعد إيمانهم يطلبون من الله تعالى أن يوفقهم لأعلى درجات العلم النافع والعمل الصالح، التي يصلون بها إلى درجة القدوة والأسوة.

وكذلك يطلبون من الله تعالى أن يكونوا دعاة إلى الخير هادين لغيرهم لأن القدوة من يقتدى به الناس ويرغبون بسببه في الدخول إلى الإسلام، أو الرقى في درجات الإيمان.

---

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/ ٨٣).

وتجدر الإشارة إلى أن الآية قد أفردت لفظ ﴿ إِمَامًا ﴾، والمعنى: واجعل كل واحد منا إماماً يقتدى به ويمكن أن يكون على إرادة الجنس. يقول العلامة أبو السعود في تلك المعانى ما ملخصه: اجعلنا بحيث يقتدون بنا في إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم وتوفيق العمل وتوحيده للدلالة على الجنس كقوله: ﴿ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [الحج: ٥]، وكقوله - سبحانه: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٦]، أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقهم واتفاق كلمتهم، وقيل إمام جمع آم كصيام[١].

ورأينا إعادة الموصول في الآيات (والذين و... والذين)، مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول، للإيذان بأن كل واحد مما ذكر في حيز صلة الموصولات كقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ... وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ إنه وصف جليل على حياله، له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل، ولا يجعل شيء عن ذلك تتمة لغيره.[٢]

وهذا يدل على خطر طلب التقوى وعلو شأنه حتى يدعو المرء بهذا الدعاء، مع إفادة المضارع يقولون لتكرار ذلك منهم، واستمرارهم عليه.

انتهى بذلك الفصل الرابع.

---

(١) ضعف ابن القيم القول الأخير سواء كان جمع آم أو مصدراً واحتج بالآية «إنا رسول رب العالمين» وقول الشاعر:

يا عاذلاتى لا تزرن ملامتى إن العواذل لسن لى بأمير

وكلامه أقرب للدليل، انظر ابن القيم «رسالة إلى كل مسلم»، دار الفتح، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ، راجعها وعلق عليها د. أسامة عبد العظيم، (ص١٣-١٥).

(٢) انظر العلامة أبى السعود «إرشاد العقل السليم»، (٤/ ١٥١). والعلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد١١ (ص٧٨-٧٩).